

سورة طه

وفي عموم سورة طه قال:

(وأما طه والشعراء مما بسط فيه قصة موسى . فالمقصود الأعظم بقصة موسى إثبات الصانع ورسالته إذ كان فرعون منكراً . ولهذا عظم ذكرها في القرآن بخلاف قصة غيره فإن فيها الرد على المشركين المقربين بالصانع ومن جعل له ولداً من المشركين وأهل الكتاب) ١. هـ^(١) .

وقال رحمه الله: (ولهذا يجب في آيات الأنبياء أن لا يعارضها من ليس بنبي فكل ما عارضها صادراً ممن ليس من جنس الأنبياء فليس من آياتهم، ولهذا طلب فرعون أن يعارض ما جاء به موسى لما ادعى أنه ساحر فجمع السحرة ليفعلوا مثل ما يفعل موسى فلا تبقى حجته مختصة بالنبوة وأمرهم موسى أن يأتوا أولاً بخوارقهم فلما أتت وابتلعتها العصا التي صارت حية علم السحرة أن هذا ليس من جنس مقدورهم فأمنوا إيماناً جازماً . ولما قال لهم فرعون: ﴿وَأَصْلِبْنَكُمْ فِي جُدُوعِ النَّخْلِ وَلِنَعْلَمَنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى﴾ ﴿٧١﴾ قَالُوا لَنْ نُؤْتِرَكَ عَلَيَّ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيْنَتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا﴾ [طه]. وقالوا: ﴿إِنَّمَا يَرْبِ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿١٣١﴾ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ﴾ [الأعراف]. فكان من تمام علمهم بالسحر أن السحر معتاد لأمثالهم وأن هذا ليس من هذا الجنس بل هذا مختص بمثل هذا فدل على صدق دعواه وفرعون وقومه بين معاند وجاهل استخفه فرعون كما قال تعالى: ﴿فَأَسْتَحَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ﴾ [الزخرف: ٥٤] ١. هـ^(٢) .

وقال شيخ الإسلام:

(سورة طه، مضمونها تخفيف أمر القرآن وما أنزل الله تعالى من كتبه فهي سورة كتبه، كما أن مريم سورة عباده ورسله افتتحها بقوله: ﴿مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى﴾ ﴿١﴾ إلى قوله: ﴿تَزِيدًا مِمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ الْعُلَى﴾ ﴿٤﴾ ثم ذكر قصة موسى، ونداء الله له

(٢) النبوات (١٢ - ١٣).

(١) النبوات (٢٨).

ومناجاته إياه وتكليمه له، وقصته من أبلغ أمر الرسل، فلهذا ثبت في القرآن لأنه حصل له الخطاب والكتاب، وأرسل إلى فرعون الجاحد المرتاب، المكذب للربوبية والرسالة، وهذا أعظم الكافرين عناداً، واستوفى القصة في هذه السورة إلى قوله: ﴿رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤]، ثم ذكر قصة آدم؛ لأنها أول النبوات.

وتضمنت السورة ذكر موسى وادم لما بينهما من المناسبة مما يقتضي ذكرهما، ولما بينهما من المناظرة، فإن موسى نظير آدم في الأمر الذي صار لكل منهما، كما أن المسيح نظير آدم في الخلق.

وقوله: ﴿فَأَمَّا يَا أَيَّتُكُم مِّنِّي هُدَىٰ﴾ [طه: ١٢٣] الآيات. وهذا يشابه ما في القرآن في غير موضع من ذكر نبوة آدم ثم نبوة موسى بعده، وأمر بني إسرائيل ثم أمر نبيه بالصلاة التي في القرآن، كما جمع بين الأمرين بالقراءة والسجود في أول سورة أنزلت، وختمها بالرسول المبلغ لكل ما أمر به كما افتتحها بذكر التنزيل عليه^(١).

﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ﴾

(وكذلك الأئمة كانوا إذا سئلوا عن شيء من ذلك لم ينفوا معناه بل يشبّهون المعنى وينفون الكيفية كقول مالك بن أنس لما سئل عن قوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ﴾ كيف استوى، فقال: الاستواء معلوم والكيف مجهول والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعة، وكذلك ربيعة قبله. وقد تلقى الناس هذا الكلام بالقبول فليس في أهل السنة من ينكره.

وقد بين أن الاستواء معلوم كما أن سائر ما أخبر به معلوم، ولكن الكيفية لا تعلم ولا يجوز السؤال عنها، لا يقال: كيف استوى، ولم يقل مالك: الكيف معدوم، وإنما قال الكيف مجهول، وهذا فيه نزاع بين أصحابنا وغيرهم من أهل السنة غير أن أكثرهم يقولون لا تخطر كيفيته ببال ولا تجري ماهيته في مقال، ومنهم من يقول: ليس له كيفية ولا ماهية.

فإن قيل: معنى قوله: «الاستواء معلوم» أن ورود هذا اللفظ في القرآن معلوم، كما قاله بعض أصحابنا الذي يجعلون معرفة معانيها من التأويل الذي استأثر الله بعلمه.

قيل: هذا ضعيف؛ فإن هذا من باب تحصيل الحاصل فإن السائل قد علم أن هذا

موجود في القرآن وقد تلا الآية. وأيضاً فلم يقل: ذكر الاستواء في القرآن، ولا إخبار الله بالاستواء؛ وإنما قال: الاستواء معلوم. فأخبر عن الاسم المفرد أنه معلوم، لم يخبر عن الجملة.

وأيضاً فإنه قال: «والكيف مجهول» ولو أراد ذلك لقال معنى الاستواء مجهول، أو تفسير الاستواء مجهول، أو بيان الاستواء غير معلوم، فلم ينف إلا العلم بكيفية الاستواء لا العلم بنفس الاستواء وهذا شأن جميع ما وصف الله به نفسه، لو قال في قوله: ﴿إِنِّي مَعَكُمْ أَسْمَعُ وَأَرَى﴾ [طه: ٤٦] كيف يسمع وكيف يرى؟ لقلنا: السمع والرؤيا معلوم والكيف مجهول، ولو قال: كيف كلم موسى تكليماً؟ لقلنا: التكليم معلوم والكيف غير معلوم.

وأيضاً فإن من قال هذا من أصحابنا وغيرهم من أهل السنة: يقرون بأن الله فوق العرش حقيقة وأن ذاته فوق ذات العرش، لا ينكرون معنى الاستواء ولا يرون هذا من المتشابه الذي لا يعلم معناه بالكلية. ثم السلف متفقون على تفسيره بما هو مذهب أهل السنة، قال بعضهم: ارتفع على العرش، علا على العرش، وقال بعضهم: عبارات أخرى، وهذه ثابتة عن السلف قد ذكر البخاري في صحيحه بعضاً في آخر كتاب «الرد على الجهمية»، وأما التأويلات المحرفة مثل استوى^(١) وغير ذلك فهي من التأويلات المبتدعة لما ظهرت الجهمية) ا.هـ^(٢).

وقال رحمه الله: (قال ربيعة بن أبي عبد الرحمن^(٣)، ومالك بن أنس^(٤)، وسائر أهل العلم: تلقوا هذا الكلام عنهما بالقبول لما قيل: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ ﴿٥﴾ كيف استوى؟ فقال: الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة. هذا لفظ مالك. فأخبر أن الاستواء معلوم وهذا تفسير اللفظ، وأخبر أن الكيف مجهول، وهذا هو الكيفية التي استأثر الله بعلمها) ا.هـ^(٥).

وقال رحمه الله: (ما رواه أبو الشيخ الأصبهاني، وأبو بكر البيهقي عن يحيى ابن

(١) كذا في الأصل، والصواب: استولى. (٢) مجموع الفتاوى (١٣/٣٠٨ - ٣١٠).

(٣) قول ربيعة أخرجه اللالكائي.

(٤) القول عن مالك مشهور رواه أبو نعيم في الحلية (٦/٣٢٥، ٣٢٦)، والبيهقي في الأسماء والصفات (ص٤٠٨)، وذكره الذهبي في السير (٨/١٠٠، ١٠١) واللالكائي.

(٥) مجموع الفتاوى (٤/٤) (١٣٩/٥، ١٤٠ - ١٨٠ - ١٨١) (٦ - ٣٩٨ - ٣٩٩) (١٧/٣٧٣)، بيان تلبس الجهمية (١/٣٥) (٢/٤٣٦) درء تعارض العقل (١/٢٧٨).

يحيى؛ قال: كنا عند مالك بن أنس؛ فجاء رجل فقال يا أبا عبد الله: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ ﴿٥﴾ كيف استوى؟ فأطرق مالك برأسه حتى علاه الرخصاء! ثم قال: الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة؛ وما أراك إلا مبتدعاً؛ ثم أمر به أن يخرج.

فقول ربيعة ومالك: الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، والإيمان به واجب موافق لقول الباين: أمرها كما جاءت بلا كيف، فإنما نفوا علم الكيفية، ولم ينفوا حقيقة الصفة) ا.هـ^(١).

وقال رحمه الله: (فإنه قد روي من غير وجه أن سائلاً سأل مالكا عن قوله: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ ﴿٥﴾ كيف استوى؟ فأطرق مالك حتى علاه الرخصاء ثم قال: الاستواء معلوم والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة، وما أراك إلا رجل سوء، ثم أمر به فأخرج. ومثل هذا الجواب ثابت عن ربيعة شيخ مالك، وقد روى هذا الجواب عن أم سلمة رضي الله عنها: موقوفاً^(٢) ومرفوعاً، ولكن ليس إسناده مما يعتمد عليه، وهكذا سائر الأئمة قولهم يوافق قول مالك في أنا لا نعلم كيفية استوائه كما لا نعلم كيفية ذاته، ولكن نعلم المعنى الذي دل عليه الخطاب، فنعلم معنى الاستواء ولا نعلم كيفيته، وكذلك نعلم معنى النزول ولا نعلم كيفيته، ونعلم معنى السمع والبصر والعلم والقدرة ولا نعلم كيفية ذلك، ونعلم معنى الرحمة والغضب والرضا والفرح والضحك ولا نعلم كيفية ذلك) ا.هـ^(٣).

وقال رحمه الله: (وروى بإسناده من طريقين أن مالك بن أنس سئل عن قوله: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ ﴿٥﴾ كيف استوى؛ فقال: الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة، وما أراك إلا ضالاً؛ وأمر أن يخرج من المجلس، وروى بإسناده الثابت عن عبد الله بن المبارك^(٤) أنه قال: نعرف

(١) مجموع الفتاوى (٤٠/٥ - ٤١).

(٢) قول أم سلمة موقوفاً عليها أخرجه ابن مردويه واللالكائي (٣٩٧/٣) كما في الدر (٩١/٣) وقد ضعفه الأئمة، والثابت عن ربيعة والإمام مالك بن أنس.

(٣) مجموع الفتاوى (٣٦٥/٥).

(٤) البخاري في «خلق أفعال العباد» (١١) والدارمي في الرد على الجهمية (ص ٥٠)، والرد على بشر المريسي (٢٤، ١٠٣)، والبيهقي في الأسماء والصفات (٤٢٧) وعبد الله بن أحمد في «السنن» (٧، ٢٥، ٣٥)، وهو ثابت صحيح.

ربنا بأنه فوق سبع سمواته بائن من خلقه؛ ولا نقول كما قالت الجهمية: بأنه ها هنا، وأشار بيده إلى الأرض) ا.هـ^(١).

وقال رحمه الله: (ولهذا لما سئل مالك وغيره من السلف عن قوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ قالوا: الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة، وكذلك قال ربعة شيخ مالك قبله: الاستواء معلوم، والكيف مجهول، ومن الله البيان وعلى الرسول البلاغ، وعلينا الإيمان) ا.هـ^(٢).

وقال رحمه الله: (مع أن المعروف عن أبي بكر بن فورك هو ما عليه الأشعري وأئمة أصحابه من إثبات أن الله فوق العرش، كما ذكر ذلك في غير موضع من كتبه، وحكاه عن الأشعري وابن كلاب وارتضاه، وذكر البيهقي عنه في كتاب «الصفات» أنه قال: (استوى) بمعنى علا) ا.هـ^(٣).

وقال رحمه الله فيما نقله عن الرازي: (ورأيت أقرب الطرق طريقة القرآن إقرأ في الإثبات: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ [فاطر: ١٠] واقراً في النفي: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١] ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾ [طه: ١١٠] ا.هـ^(٤).

وقال رحمه الله: (وذلك مثل ما ذكره الخلال وغيره عن إسحاق ابن راهويه حدثنا بشر بن عمر قال سمعت غير واحد من المفسرين يقول: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ أي ارتفع).

وقال البخاري في صحيحه، قال أبو العالية: استوى إلى السماء ارتفع، وقال مجاهد: استوى (علا) على العرش، وقال البغوي في تفسيره: قال ابن عباس وأكثر مفسري السلف: استوى إلى السماء ارتفع إلى السماء، وكذلك قال الخليل ابن أحمد، وروى البيهقي عن الفراء استوى أي صعد وهو كقول الرجل كان قاعداً فاستوى قائماً) ا.هـ^(٥).

(١) مجموع الفتاوى (٥/٣٩٠).

(٢) بيان تلبيس الجهمية (٢/٣٣٢).

(٤) بيان تلبيس الجهمية (١/١٢٩)، وهذا كلام الرازي وليس لشيخ الإسلام، وقد نقلها شيخ الإسلام في مواضع عدة مقرأ لها.

(٥) الفتاوى (الأصفهانية) (٥/٢٥).

وقال رحمه الله: (وقال أبو حنيفة في كتاب «الفقه الأكبر» المعروف المشهور عند أصحابه، الذي رواه بالإسناد عن أبي مطيع الحكم بن عبد الله البلخي: قال: «قال أبو حنيفة عمّن قال: لا أعرف ربي في السماء أم في الأرض [فقال]: قد كفر لأن الله يقول: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ ﴿٥﴾ وعرشه فوق سبع سماوات. قال أبو مطيع: قلت: فإن قال: إنه على العرش ولكنه يقول: لا أدري العرش في السماء أم في الأرض؟ قال: هو كافر، لأنه أنكر أن يكون في السماء، لأنه تعالى في أعلى عليين، وأنه يُدعى من أعلى لا من أسفل».

وفي لفظ: قال: «سألت أبا حنيفة عمّن قال: لا أعرف ربي في السماء أو في الأرض. قال: قد كفر؛ لأن الله يقول: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ ﴿٥﴾ وعرشه فوق سبع سماوات.

قال: «فإنه يقول: على العرش استوى، ولكنه لا يدري العرش في الأرض أم في السماء. قال: إذا أنكر أنه في السماء فقد كفر» (١) هـ.

وقال رحمه الله: (وروى الخلال بإسناد كلهم ثقات عن سفيان بن عيينة، قال: سئل ربيعة بن أبي عبد الرحمن عن قوله: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ ﴿٥﴾ قال: الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، ومن الله الرسالة، وعلى الرسول البلاغ، وعلىنا التصديق. وهذا الكلام مروى عن مالك بن أنس صاحب ربيعة من وجوه متعددة، يقول في بعضها، الاستواء معلوم، وفي بعضها: غير مجهول، وفي بعضها: استواؤه غير مجهول، فيثبت العلم بالاستواء، وينفي العلم بالكيفية.

وروى ابن أبي حاتم، عن هشام بن عبد الله الرازي أنه حبس رجلاً في التجهم فتاب، فجيء به إلى هشام ليمتحنه، فقال له: أتشهد أن الله على عرشه بائن من خلقه؟ قال: لا أدري ما بائن من خلقه

قال: رده إلى الحبس فإنه لم يتب بعد.

وروى أيضاً عن عبد الله بن أبي جعفر الرازي أنه جعل يضرب قرابة له بالنعل على رأسه يرى رأي جهنم، ويقول: لا حتى يقول: الرحمن على العرش استوى، بائن من خلقه.

وروى الشافعي^(١) في مسنده عن أنس رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال عن يوم الجمعة وهو اليوم الذي استوي فيه ربكم على العرش) ١. هـ^(٢).

وقال رحمه الله: (وروى عن «أبي زرعة الرازي» أنه لما سئل عن تفسير قوله: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ فقال: تفسيره كما يقرأ، هو على العرش، وعلمه في كل مكان؛ ومن قال غير هذا فعليه لعنة الله) ١. هـ^(٣).

وقال رحمه الله: (وقال أيضاً^(٤)): قال أهل السنة: في قول الله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ أن الاستواء من الله على عرشه المجيد على الحقيقة؛ لا على المجاز. وقال ابن عبد البر في «التمهيد» - شرح الموطأ، وهو أشرف كتاب صنف في فنه، لما تكلم على حديث النزول قال: هذا حديث ثابت لا يختلف أهل الحديث في صحته، وفيه دليل على أن الله في السماء على العرش من فوق سبع سموات كما قالت الجماعة، وهو من حجته على المعتزلة في قولهم إنه في كل مكان؟ وليس على العرش) ١. هـ^(٥).

وقال رحمه الله: (وقال أيضاً^(٦)): قال أهل السنة في قول الله: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ إن الاستواء من الله على عرشه المجيد على الحقيقة لا على المجاز) ١. هـ^(٧).

وقال رحمه الله: (فهنا بحثان: لفظي ومعنوي، أما المعنوي: فالأقسام ثلاثة في قوله: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ ونحوه، أن يقال: استواء كاستواء مخلوق أو يفسر باستواء مستلزم حدوثاً أو نقصاً فهذا هو الذي يحكي عن الضلال المشبهة والمجسمة وهو باطل قطعاً بالقرآن وبالعقل، وإما أن يقال: ما ثم استواء حقيقي أصلاً ولا على العرش إله، ولا فوق السموات رب، فهذا هو مذهب الضالة الجهمية المعطلة، وهو باطل قطعاً بما علم بالاضطرار من دين الإسلام، لمن أمعن النظر في العلوم النبوية وبما فطر الله عليه خليقته من الإقرار بأنه فوق خلقه كإقرارهم بأنه ربهم،

(١) مسند الشافعي (ص ١٢٦ - ١٢٧). (٢) درء تعارض العقل والنقل (٢/ ٢٠ - ٢١).

(٣) مجموع الفتاوى (٥/ ٥٠). (٤) أي الظلمنكي.

(٥) مجموع الفتاوى (٣/ ٢١٩ - ٢٢٠)، وقريباً منه في مجموع الفتاوى (٣/ ٢٦٣).

(٦) هو الظلمنكي.

(٧) مجموع الفتاوى (٣/ ٢٦١) بيان تليس الجهمية (٢/ ٣٨) درء تعارض العقل (٦/ ٢٥١).

قال ابن قتيبة^(١): ما زالت الأمم عربها وعجمها في جاهليتها وإسلامها معترفة بأن الله في السماء أي على السماء أو يقال: بل استوى سبحانه على العرش على الوجه الذي يليق بجلاله ويناسب كبريائه وأنه فوق سماواته وأنه على عرشه بائن من خلقه، مع أنه سبحانه هو حامل للعرش ولحملة العرش، وإن الاستواء معلوم والكيف مجهول والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعة كما قالت أم سلمة وربيعة بن أبي عبد الرحمن ومالك بن أنس^(٢)، فهذا مذهب المسلمين. وهو الظاهر من لفظ (استوى) عند عامة المسلمين الباقيين على الفطرة السالمة التي لم تنحرف إلى تعطيل ولا إلى تمثيل، وهذا هو الذي أراده يزيد بن هارون الواسطي^(٣) المتفق على إمامته وجلالته وفضله وهو من أتباع التابعين حيث قال: من زعم أن الرحمن على العرش استوى خلاف ما يقر في نفوس العامة فهو جهمي، فإن الذي أقره الله تعالى في فطر عباده وجبلهم عليه أن ربهم فوق سماواته، كما أنشد عبد الله بن رواحة ﷺ النبي ﷺ فأقره النبي ﷺ:

شهدت بأن وعد الله حق وأن النار مثوى الكافرين
وأن العرش فوق الماء طاف وفوق العرش رب العالمينا^(٤)

وقال عبد الله بن المبارك - الذي أجمعت فرق الأمة على إمامته وجلالته حتى قيل أنه أمير المؤمنين في كل شيء^(٥) وقيل: ما أخرجت خراسان مثل ابن المبارك^(٦) وقد أخذ عن عامة علماء وقته مثل الثوري ومالك وأبي حنيفة والأوزاعي وطبقتهم حين قيل له بماذا نعرف ربنا قال: بأنه فوق سماواته على عرشه بائن من خلقه^(٧)، وقال محمد بن إسحاق بن خزيمة - الملقب إمام الأئمة وهو ممن يعرج أصحاب الشافعي بما ينصره من

- (١) تأويل مختلف الحديث (ص ١١٣).
- (٢) قول أم سلمة في اللالكائي (٣/٣٩٧)، وربيعة في اللالكائي (٣/٣٩٨)، ومالك عند البيهقي في الأسماء والصفات (ص ٤٠٨).
- (٣) البخاري في «خلق أفعال العباد» (٣٦)، أحمد في «السنة» (ص ١٧).
- (٤) ابن أبي شيبه (٨/٩٠٥)، الدارمي في «الرد على الجهمية» (٢٧)، وابن قدامة في «العلو» (٦٨) وذكرها السبكي في طبقاته (١/٢٦٤ - ٢٦٥) والذهبي في «السير» (١/٣٣٨) وإسنادها لا يصح، وأكثر الكتاب المعاصرين على نكارة متنها وكلامهم هذا لا يصح، وجميع الأئمة السالفة ذكروها متلقين معناها وما حوته بالقبول، والتعالم لا يصح ولا يجوز، أما الاستشهاد بها ففهيلاً فلا يجوز.
- (٥) الخطيب في تاريخه (١٠/١٦٥).
- (٦) الخطيب في تاريخه (١٠/١٥٥).
- (٧) البخاري «خلق أفعال العباد» (٣١) جزء منه، والدارمي في «الرد على الجهمية» (٢٣).

مذهبه ويكاد يقال: ليس فيهم أعلم بذلك منه -: من لم يقل إن الله فوق سمواته على عرشه بائن من خلقه وجب أن يستتاب فإن تاب وإلا ضربت عنقه وألقي على مزبلة لثلا يتأذى ببتن ريحه أهل الملة ولا أهل الذمة وكان ماله فيثاً^(١)، وقال مالك بن أنس الإمام فيما رواه عنه عبد الله بن نافع وهو مشهور عنه: الله في السماء وعلمه في كل مكان^(٢)، لا يخلو من علمه مكان. وقال الإمام أحمد بن حنبل^(٣) مثل ما قال مالك، وما قال ابن المبارك. والآثار عن النبي ﷺ وأصحابه وسائر علماء الأمة بذلك متواترة عند من تتبعها، قد جمع العلماء فيها مصنفات صغاراً وكباراً، ومن تتبع الآثار علم أيضاً قطعاً أنه لا يمكن أن ينقل عن أحد منهم حرف واحد يناقض ذلك، بل كلهم مجمعون على كلمة واحدة وعقيدة واحدة، يصدق بعضهم بعضاً، وإن كان بعضهم أعلم من بعض، كما أنهم متفقون على الإقرار بنبوته محمد ﷺ وإن كان فيهم من هو أعلم بخصائص النبوة ومزاياها وحقوقها وموجباتها وحقيقتها وصفاتها، ثم ليس أحد منهم قال يوماً من الدهر: ظاهر هذا غير مراد ولا قال: ظاهر هذه الآية أو هذا الحديث مصروف عن ظاهره، مع أنهم قد قالوا مثل ذلك في آيات الأحكام المصروفة عن عمومها وظهورها، وتكلموا فيما يستشكل مما قد يتوهم أنه متناقض وهذا مشهور لمن تأمله، وهذه الصفات أطلقوها بسلامة، وطهارة وصفاء، لم يشوبوه بكدر ولا غش، ولو لم يكن هذا هو الظاهر عند المسلمين لكان رسول الله ﷺ ثم سلف الأمة، قالوا للأمة: الظاهر الذي تفهمونه غير مراد، أو لكان أحد من المسلمين استشكل هذه الآية وغيرها فإن كان بعض المتأخرين قد زاع قلبه حتى صار يظهر له من الآية معنى فاسد، مما يقتضي حدوثاً أو نقصاً، فلا شك أن الظاهر لهذا الزائع غير مراد، وإذا رأينا رجلاً يفهم من الآية هذا الظاهر الفاسد، قررنا عنده أولاً: أن هذا المعنى ليس مفهوماً من ظاهر الآية ثم قررنا عنده ثانياً: أنه في نفسه معنى فاسد، حتى لو فرض أنه ظاهر الآية وإن كان هذا فرض ما لا حقيقة له لوجب صرف الآية عن ظاهرها كسائر الظواهر التي عارضها ما أوجب أن المراد بها غير الظاهر. واعلم أن من لم يحكم دلالات اللفظ ويعلم أن ظهور المعنى من اللفظ تارة يكون بالوضع اللغوي أو العرفي أو الشرعي إما في الألفاظ

(١) عزاه ابن تيمية في «الدرء» إلى النيسابوري في تاريخه، راجع الدرء (٦/٢٦٤).

(٢) عبد الله بن أحمد (١١)، والآجري في «الشرية» (٢٨٩).

(٣) ذكره ابن القيم في اجتماع الجيوش (١٢٣).

المفردة وإما في المركبة، وتارة بما اقترن باللفظ المفرد من التركيب الذي تتغير به دلالة في نفسه، وتارة بما اقترن به من القرائن اللفظية التي تجعلها مجازاً، وتارة بما يدل عليه حال المتكلم والمخاطب، والمتكلم فيه وسياق الكلام الذي يعين أحد احتمالات اللفظ، أو يبين أن المراد به هو مجازه إلى غير ذلك من الأسباب التي تعطي اللفظ صفة الظهور وإلا فقد يتخبط في هذه المواضع، نعم إذا لم يقترن باللفظ قط شيء من القرائن المتصلة تبين مراد المتكلم، بل علم مراده بدليل آخر لفظي منفصل فهنا أريد به خلاف الظاهر كالعموم المخصوص بدليل منفصل، وإن كان الصارف عقلياً ظاهراً ففي تسمية المراد خلاف الظاهر خلاف مشهور في أصول الفقه، وبالجملة فإذا عرف المقصود فقولنا: هذا هو الظاهر، أو ليس هو الظاهر خلاف لفظي فإن كان الحالف ممن في عرف خطابه أن ظاهر هذه الآية ما هو مماثل لصفات المخلوقين فقد حث وإن كان في عرف خطابه أن ظاهرها هو ما يليق بالله تعالى لم يحث، وإن لم يعلم عرف أهل ناحيته في هذه اللفظة، ولم يكن سبب يستدل به على مراده، وتعذر العلم بنيته، فقد جاز أن يكون أراد معنى صحيحاً، وجاز أن يكون أراد معنى باطلاً فلا يحث بالشك.

وهذا كله تفريع على قول من يقول إن من حلف على شيء يعتقد كما حلف عليه فتبين بخلافه حث وأما على قول من لم يحثه فالحكم في يمينه ظاهر. واعلم أن عامة من ينكر هذه الصفة وأمثالها إذا بحثت عن الوجه الذي أنكروه وجدتهم قد اعتقدوا أن ظاهر هذه الآية كاستواء المخلوقين أو استواء يستلزم حدوثاً أو نقصاً ثم حكوا عن مخالفتهم هذا القول ثم تعبوا في إقامة الأدلة على بطلانه، ثم يقولون: فيتعين تأويله إما بالاستيلاء أو بالظهور والتجلي أو بالفضل والرجحان الذي هو علو القدر والمكانة ويبقى المعنى الثالث، وهو استواء يليق بجلاله، تكون دلالة هذا اللفظ عليه كدلالة لفظ العلم والإرادة والسمع والبصر على معانيها، قد دل السمع عليه. بل من أكثر النظر في آثار الرسول ﷺ علم بالاضطرار أنه قد ألقى إلى الأمة أن ربكم الذي تعبدونه فوق كل شيء وعلى كل شيء، فوق العرش فوق السماوات وعلم أن عامة السلف كان هذا عندهم مثل ما عندهم أن الله بكل شيء عليم وعلى كل شيء قدير وأنه لا ينقل عن واحد لفظ يدل - لا نصاً ولا ظاهراً - على خلاف ذلك، ولا قال أحد منهم يوماً من الدهر إن ربنا ليس فوق العرش أو أنه ليس على العرش أو أن استوائه على العرش

كاستوائه على البحر إلى غير ذلك من ترهات الجهمية ولا مثل استواءه باستواء المخلوقين ولا أثبت له صفة تستلزم حدوثاً أو نقصاً) ١. هـ^(١).

وقال رحمه الله: (فإن لفظ (استوى) لم تستعمله العرب في خصوص جلوس الآدمي [مثلاً على سريريه حقيقة، حتى يصير في غيره مجازاً، كما أن لفظ (العلم) لم تستعمله العرب في خصوص] العرض القائم بقلب البشر المنقسم إلى ضروري ونظري حقيقة، واستعملته في غيره مجازاً، بل المعنى تارة يستعمل بلا تعدية كما في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ﴾ [القصص: ١٤] وتارة يعدى بحرف الغاية كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ﴾ [البقرة: ٢٩] وتارة يُعدى بحرف الاستعلاء، ثم هذا تارة يكون صفة لله وتارة يكون صفة لخلقه فلا يجب أن يجعل في أحد الموضوعين حقيقة وفي الآخر مجازاً. ولا يجوز أن يفهم من استواء الله تعالى الخاصية التي تثبت للمخلوق دون الخالق كما في قوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ﴾ [الذاريات: ٤٧] وقوله تعالى: ﴿وَمَا عَمِلْتَ آيَاتِنَا﴾ [يس: ٧١] وقوله تعالى: ﴿صُنِعَ اللَّهُ لِدَىٰ أَنْفَنَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [النمل: ٨٨] وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ [الأنبياء] فهل يستحل مسلم أن يثبت لربه خاصية الآدمي الباني الصانع العامل الكاتب، أم يستحل أن ينفي عنه حقيقة العمل والبناء كما يختص به ويليق بجلاله، أم يستحل أن يقول هذه الألفاظ مصروفة عن ظاهرها، أم الذي يجب أن يقول: عمل كل أحد بحسبه فكما أن ذاته ليست مثل ذوات خلقه فعمله وصنعه وبنائه ليس مثل عملهم وصنعهم وبنائهم، ونحن لم نفهم من قولنا بني فلان وكتب فلان ما في عمله من المعالجة والتأثر إلا من جهة علمنا بحال الباني لا من جهة مجرد اللفظ ففرق - أصلحك الله - بين ما دل عليه مجرد اللفظ الذي هو لفظ الفعل وما يدل عليه بخصوص إضافته إلى الفاعل المعين.

وبهذا ينكشف لك كثير مما يشكل على كثير من الناس، وترى مواقع اللبس في كثير من هذا الباب والله يوفقنا وسائر إخواننا المؤمنين لما يحبه ويرضاه من القول والعمل وجمع قلوبنا على دينه الذي ارتضاه لنفسه وبعث به رسوله ﷺ) ١. هـ^(٢).

قال رحمه الله: (وأما أئمة الصفاتية كابن كلاب وسائر السلف، فعندهم أن العلو من الصفات المعلومة بالعقل، وهذا قول الجمهور من أصحاب أحمد وغيرهم، وإليه

(١) الفتاوى (التسعينية) (١٢٦/٥ - ١٢٩). (٢) الفتاوى (التسعينية) (١٣٠/٥ - ١٣١).

رجع القاضي أبو يعلى آخرأ، وهو قول جمهور أهل الحديث والفقهاء والتصوف، وهو قول الكرامية وغيرهم.

وأما الاستواء فهو من الصفات السمعية عند من يجعله من الصفات الفعلية بلا نزاع، فإن ذلك لم يعلم إلا بالسمع. وهذا الذي ذكره ابن كلاب وغيره من أن المنازع من المسلمين في أن الله فوق العرش كانوا قليلين جداً، يبين خطأ من قال: إن النزاع إنما هو مع الكرامية والحنبلية، بل جماهير الخلق من جميع الطوائف على الإثبات: جمهور أئمة الفقهاء من: الحنفية والمالكية والشافعية والحنبلية والداوودية^(١)، وجمهور أهل التصوف والزهد والعبادة، وجمهور أهل التفسير، وجمهور أهل الحديث، وجمهور أهل الكلام من الكرامية والكلابية والأشعرية والهشامية، وجمهور المرجئة، وجمهور قدماء الشيعة.

وإنما الخلاف في ذلك معروف عن جهم وأتباعه، والمعتزلة، ومن وافقهم من الخوارج، ومتأخري الشيعة، ومتأخري الأشعرية^(٢).

وقال رحمه الله: (والمبطل لتأويل من تأول استوى بمعنى استولى وجوه:

«أحدها»: أن هذا التفسير لم يفسره أحد من السلف من سائر المسلمين من الصحابة والتابعين، فإنه لم يفسره أحد في الكتب الصحيحة عنهم، بل أول من قال ذلك، بعض الجهمية والمعتزلة؛ كما ذكره أبو الحسن الأشعري في كتاب «المقالات» وكتاب «الإبانة».

«الثاني»: أن معنى هذه الكلمة مشهور؛ ولهذا لما سئل ربيعة بن أبي عبد الرحمن ومالك بن أنس عن قوله: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ قالوا: الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة. ولا يريد أن: الاستواء معلوم في اللغة دون الآية، لأن السؤال عن الاستواء في الآية كما يستوي الناس.

«الثالث»: أنه إذا كان معلوماً في اللغة التي نزل بها القرآن كان معلوماً في القرآن.

«الرابع»: أنه لو لم يكن معنى الاستواء في الآية معلوماً لم يحتج أن يقول:

(١) أي اتباع داود الظاهري صاحب المذهب الظاهري.

(٢) درء تعارض العقل والنقل (٦/٢٠٩ - ٢١٠).

الكيف مجهول؛ لأن نفي العلم بالكيف لا ينفي إلا ما قد علم أصله، كما نقول إنا نقر بالله ونؤمن به، ولا نعلم كيف هو.

«الخامس»: الاستيلاء سواء كان بمعنى القدرة أو القهر أو نحو ذلك هو عام في المخلوقات كالربوبية، والعرش وإن كان أعظم المخلوقات ونسبة الربوبية إليه لا تنفي نسبتها إلى غيره، كما في قوله: ﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ [المؤمنون]، وكما في دعاء الكرب؛ فلو كان استوى بمعنى استولى - كما هو عام في الموجودات كلها - لجاز مع إضافته إلى العرش أن يقال: استوى على السماء، وعلى الهوى، والبحار والأرض، وعليها ودونها ونحوها؛ إذ هو مستو على العرش. فلما اتفق المسلمون على أنه يقال: استوى على العرش ولا يقال: استوى على هذه الأشياء مع أنه يقال استولى على العرش والأشياء، علم أن معنى استوى خاص بالعرش ليس عاماً كعموم الأشياء.

«السادس»: أنه أخبر بخلق السموات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش، وأخبر أن عرشه كان على الماء قبل خلقها، وثبت ذلك في صحيح البخاري عن عمران بن حصين عن النبي ﷺ قال: «كان الله ولا شيء غيره، وكان عرشه على الماء، وكتب في الذكر كل شيء ثم خلق السموات والأرض»، مع أن العرش كان مخلوقاً قبل ذلك، فمعلوم أنه ما زال مستولياً عليه قبل وبعد، فامتنع أن يكون الاستيلاء العام هذا الاستيلاء الخاص بزمان كما كان مختصاً بالعرش.

«السابع»: أنه لم يثبت أن لفظ استوى في اللغة بمعنى استولى؛ إذ الذين قالوا ذلك عمدتهم البيت المشهور.

ثم استوى بشر على العراق من غير سيف ولا دم مهراق ولم يثبت نقل صحيح أنه شعر عربي، وكان غير واحد من أئمة اللغة أنكروه وقالوا: إنه بيت مصنوع لا يعرف في اللغة، وقد علم أنه لو احتج بحديث رسول الله ﷺ لاحتاج إلى صحته، فكيف يبيت من الشعر لا يعرف إسناده؟! وقد طعن فيه أئمة اللغة؛ وذكر عن الخليل كما ذكره أبو المظفر في كتابه «الإفصاح» قال: سئل الخليل هل وجدت في اللغة استوى بمعنى استولى؟ فقال: هذا ما لا تعرفه العرب؛ ولا هو جائز في لغتها، وهو إمام في اللغة على ما عرف من حاله؛ فحينئذ حمله على ما لا يعرف حمل باطل.

«الثامن»: أنه روي عَنْ جماعة من أهل اللغة أنهم قالوا: لا يجوز استوى بمعنى استولى إلا في حق من كان عاجزاً ثم ظهر، والله سبحانه لا يعجزه شيء، والعرش لا يغالبه في حال، فامتنع أن يكون بمعنى استولى، فإذا تبين هذا فقول الشاعر:

ثم استوى بشر على العراق

لفظ مجازي لا يجوز حمل الكلام عليه إلا مع قرينة تدل على إرادته، واللفظ المشترك بطريق الأولى، ومعلوم أنه ليس في الخطاب قرينة أنه أراد بالآية الاستيلاء.

و«أيضاً» فأهل اللغة قالوا: لا يكون استوى بمعنى استولى إلا فيما كان منازعاً مغالباً فإذا غلب أحدهما صاحبه قيل: استولى، والله لم ينازعه أحد في العرش، فلو ثبت استعماله في هذا المعنى الأخص مع النزاع في إرادة المعنى الأعم لم يجب حمله عليه بمجرد قول بعض أهل اللغة مع تنازعهم فيه، وهؤلاء ادعوا أنه بمعنى استولى في اللغة مطلقاً، والاستواء في القرآن في غير موضع، مثل قوله: ﴿أَسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى آفَاقِكِ﴾ [المؤمنون: ٢٨]، ﴿وَأَسْوَوْتَ عَلَى الْجُودِيِّ﴾ [هود: ٤٤] ﴿لِنَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ﴾ [الزخرف: ١٣] وفي حديث عدي: أن رسول الله ﷺ أتى بدابته فلما وضع رجله في الغرز قال: «بسم الله». فلما استوى على ظهرها قال: «الحمد لله».

«التاسع»: أنه لو ثبت أنه من اللغة العربية لم يجب أن يكون من لغة العرب العرباء، ولو كان من لفظ بعض العرب العرباء لم يجب أن يكون من لغة رسول الله ﷺ وقوله؛ ولو كان من لغته لكان بالمعنى المعروف في الكتاب والسنة وهو الذي يراد به ولا يجوز أن يراد معنى آخر.

«العاشر»: أنه لو حمل على هذا المعنى لأدى إلى محذور يجب تنزيه بعض الأئمة عنه؛ فضلاً عَنْ الصحابة؛ فضلاً عَنْ الله ورسوله؛ فلو كان الكلام في الكتاب والسنة كلاماً نفهم منه معنى، ويريدون به آخر، لكان في ذلك تدليس وتلبيس، ومعاذ الله أن يكون ذلك! فيجب أن يكون استعمال هذا الشاعر في هذا اللفظ في هذا المعنى ليس حقيقة بالاتفاق؛ بل حقيقة في غيره، ولو كان حقيقة فيه للزم الاشتراك المجازي فيه، وإذا كان مجازاً عَنْ بعض العرب أو مجازاً اخترعه من بعده، أفتترك اللغة التي يخاطب بها رسول الله ﷺ أمته؟!.

«الحادي عشر»: أن هذا اللفظ الذي تكرر في الكتاب والسنة والدواعي متوفرة على فهم معناه من الخاصة والعامة عادة ودينياً إن جعل الطريق إلى فهمه بيت شعر

أحدث فيؤدي إلى محذور؛ فلو حمل على معنى هذا البيت للزم تخطئة الأئمة الذين لهم مصنفات في الرد على من تأول ذلك، وكان يؤدي إلى الكذب على الله ورسوله ﷺ والصحابة والأئمة، وللزم أن الله امتحن عباده بفهم هذا دون هذا، مع ما تقرر في نفوسهم وما ورد به نص الكتاب والسنة، والله سبحانه لا يكلف نفساً إلا وسعها، وهذا مستحيل على الله ورسوله ﷺ والصحابة والأئمة .

«الثاني عشر»: أن معنى الاستواء معلوم علماً ظاهراً بين الصحابة والتابعين وتابعيهم فيكون التفسير المحدث بعده باطلاً قطعاً، وهذا قول يزيد بن هارون الواسطي؛ فإنه قال: إن من قال: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ ﴿٥﴾ خلاف ما تقرر في نفوس العامة فهو جهمي. ومنه قول مالك: الاستواء معلوم، وليس المراد أن هذا اللفظ في القرآن معلوم كما قال بعض الناس: استوى أم لا؟ أو أنه سئل عن الكيفية ومالك جعلها معلومة، والسؤال عن النزول ولفظ الاستواء ليس بدعة ولا الكلام فيه؛ فقد تكلم فيه الصحابة والتابعون، وإنما البدعة السؤال عن الكيفية.

ومن أراد أن يزداد في هذه القاعدة نوراً فلينظر في شيء من الهيئة، وهي الإحاطة والكريمة. (١) هـ.

وقال رحمه الله: (ولشهرة هذا من مذهب الأشعري قال أبو الحسن علي بن مهدي الطبري^(٢) المتكلم صاحب أبي الحسن الأشعري في كتابه الذي ألفه في «مشكل الآيات» في باب قوله: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ ﴿٥﴾: اعلم أن الله ﷻ في السماء، فوق كل شيء، على عرشه؛ بمعنى أنه عليه. ومعنى «الاستواء» الاعتلاء، كما تقول: العرب استويت على ظهر الدابة، واستويت على السطح.

بمعنى علوته، واستوى الشمس على رأسي، واستوى الطير على قمة رأسي. بمعنى علا في الجو فوجد فوق رأسي. فالقديم جل جلاله عال على عرشه، قوله: ﴿ءَأَنتُمْ مَن فِي السَّمَاءِ﴾ [الملك: ١٦] وقوله: ﴿يَعِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَرَافِعَكَ إِلَىٰ﴾ [آل عمران: ٥٥] وقوله: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾ [فاطر: ١٠] وقوله: ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَىٰ الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ﴾ [السجدة: ٥].

(١) مجموع الفتاوى (٥/١٤٤ - ١٤٩).

(٢) تكلم عن ترجمته وعن مخطوطة كتابه عبد الرحمن بن صالح المحمود حفظه الله في رسالة الدكتوراه «موقف ابن تيمية من الأشاعرة».

قال: وزعم البلخي: أن استواء الله على العرش، هو الاستيلاء عليه، مأخوذ من قول العرب: استوى بشر على العراق، استولى عليها. وقال: إن العرش يكون الملك، فيقال ما أنكرت أن يكون عرش الله جسماً خلقه وأمر ملائكته بحمله، قال: ﴿وَيَجْلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ فَمَنِيَّةٌ﴾ [الحاقة: ١٧] وأمية يقول:

مجدوا الله فهو للمجد أهل ربنا في السماء أمسى كبيراً

قال: ومما يدل على أن الاستواء ها هنا ليس بالاستيلاء لأنه لو كان كذلك لم ينبغ أن يخص العرش بالاستيلاء عليه دون سائر خلقه؛ إن هو مستول على العرش وعلى سائر خلقه، وليس للعرش مزية على ما وصفته، فبان بذلك فساد قوله.

ثم يقال له أيضاً: إن الاستواء ليس هو الاستيلاء، الذي من قول العرب استوى فلان على كذا: أي استولى. إذا تمكن فيه بعد أن لم يكن متمكناً، فلما كان الباري لا يوصف بالتمكن بعد أن لم يكن متمكناً لم يصرف معنى الاستواء إلى الاستيلاء.

ثم قال: حدثنا أبو عبد الله نفظويه ثنا أبو سعيد، قال كنا عند الأعرابي فأتاه رجل فقال: ما معنى قوله: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ (٥)؟ قال: هو على عرشه كما أخبر. فقال: ليس هو كذلك إنما معناه استولى. قال ابن الأعرابي: اسكت ما يدريك ما هذا، العرب لا تقول للرجل استولى على العرش حتى يكون له فيه مضاد، فأيهما غلب قيل استولى عليه، والله لا مضاد له، وهو على عرشه كما أخبر (١)هـ.

﴿إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ بَصُورَةٍ﴾ هُدَى (١٠) .

(والإنس سموا إنساً لأنهم يؤنسون أي يرون كما قال تعالى: ﴿إِنِّي آنَسْتُ نَارًا﴾ أي رأيتها) ا. هـ (٢).

وقال رحمه الله: (كما تسمى الإنس إنساً لأنهم يؤنسون أي يبصرون، كما قال موسى ﷺ: ﴿إِنِّي آنَسْتُ نَارًا﴾ أي أبصرت ناراً) ا. هـ (٣).

﴿فَلَمَّا أَنهَا تُودَى يَمُوسَى﴾ (١١) .

(وقال: ﴿فَلَمَّا أَنهَا تُودَى يَمُوسَى﴾ (١١) إِنِّي أَنَا رَبُّكَ وفي هذا دليل على أنه حينئذ

(١) بيان تلبس الجهمية (٢/٣٣٥ - ٣٣٦). (٢) مجموع الفتاوى (١٧/٤٦٥).

(٣) الرد على الأحنائي (١٧٥).

نودي ولم يناد قبل ذلك؛ ولما فيها من معنى الظرف كما في قوله: ﴿وَأَنْتَ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِيَدًّا﴾ [الجن]: ومثل هذا قوله: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص]: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [القصص]، فإنه وقت النداء بظرف محدود، فدل على أن النداء يقع في ذلك الحين دون غيره من الظروف، وجعل الظرف للنداء لا يسمع النداء إلا فيه) ا. هـ^(١).

﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ [١٧].

(فلو لم يكن الله ﷻ هو القائل بنفسه: ﴿أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا﴾ بل أحدث ذلك في غيره لم يكن هو الأمر بهذه الأمور، ولا المخبر بهذا الخبر، وكان ذلك المحل هو الأمر بهذا الأمر، المخبر بهذا الخبر، وذلك المحل: إما الهواء، وإما غيره، فيكون ذلك المحل المخلوق هو القائل لموسى: ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي﴾ ولهذا كان السلف يقولون في هذه الآية وأمثالها: من قال: إنه مخلوق فقد كفر. ويستعظمون القول بخلق هذه الآية وأمثالها أكثر من غيرها، يعظم عليهم أن تقوم دعوى الإلهية والربوبية لغير الله تعالى) ا. هـ^(٢).

وقال رحمه الله: (ولهذا قال من قال من السلف: من قال: ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا﴾ مخلوق، فقد جعل كلام الله بمنزل قول فرعون، الذي قال: ﴿أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْظَمُ﴾ [النازعات: ٢٤] لأن عنده هذا الكلام خلقه الله في الشجرة، وذلك خلقه في فرعون، فإذا كان هذا كلام الله كان هذا كلام الله) ا. هـ^(٣).

وقال رحمه الله: (إن الذي نادى موسى من الشجرة لم يتكلم إلا بكلام الربوبية، فقال: ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [القصص: ٣٠]، ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ [١٧] إِنَّ السَّاعَةَ آئِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِجُجْزِي كُلِّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدُّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى ﴿١٦﴾).

وسائر ما تكلم به كله يقتضي أنه كلام رب العالمين، وأما المتكلم على لسان المسيح فلم يقل كلمة من هذا أصلاً، بل كان في كلامه من الإقرار بأنه رسول، وأنه مخلوق، محتاج، وأنه ابن البشر، وغير ذلك مما يناقض من كل وجه كلام المنادي

(٢) مجموع الفتاوى (١٢/٤٣٥).

(١) مجموع الفتاوى (١٢/١٣١).

(٣) درء تعارض العقل (٢/٢٥٣).

لموسى من الشجرة، فمن سوى بين هذا وهذا، كان قد سوى بين رب العالمين وبين إنسان من الآدميين، وهو أضل من الذين قال الله فيهم: ﴿تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ (١٧) إِذْ سُوِّيَكُمْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨﴾ [الشعراء]، فإن أولئك جعلوهم أنداداً لله في بعض الأمور مع اعترافهم بأنهم مخلوقون، وهؤلاء الضلال جعلوا هذا الإنسان الذي يتكلم هو رب العالمين الذي كلم موسى من الشجرة، وقالوا: إن هذا الذي كلم العباد هو ذاك الذي نادى موسى من الشجرة) ا.هـ (١).

﴿إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسَعَىٰ﴾ (١٥).

(وقال تعالى لموسى: ﴿إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾ قال ابن عباس وغيره: أكاد أخفيها من نفسي فكيف أطلع عليها؟) ا.هـ (٢).

﴿قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَىٰ﴾ (١٦).

(فقوله لموسى: ﴿وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَىٰ﴾ هو أمر مقرون بخبره بما يزيل الخوف) ا.هـ (٣).

﴿إِنْ أَقْدِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَأَقْدِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ وَالْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةٌ مِّنِّي وَلِيُصْنَعَ عَلَيَّ عَيْتِي﴾ (١٧).

(وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰ﴾ (١٧) إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مَا يُوحَىٰ﴾ (١٨) أَنْ أَقْدِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَأَقْدِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ﴾. وهو فرعون، فهو إذ ذاك عدو لله، ولم يكن جاءت الرسالة بعد) ا.هـ (٤).

وقال رحمه الله: (ثم إن الله خص موسى بمزية فوق الرضا حيث قال: ﴿وَالْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةٌ مِّنِّي وَلِيُصْنَعَ عَلَيَّ عَيْتِي﴾) ا.هـ (٥).

﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لِّئَا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ (١٨).

(ولهذا قال الله في خطابه لموسى: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لِّئَا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ﴾ ما في فطرته من

(١) الجواب الصحيح (١٦/٤ - ١٧).

(٢) مجموع الفتاوى (٤/٣٤١)، درء تعارض العقل (١٠/٧٩). وفي تفسير الطبري عن ابن عباس: لا أظهر عليها أحداً غيبي. وأخرج سعيد بن منصور وابن أبي حاتم وغيرهما عن ابن عباس: قال: أكاد أخفيها من نفسي.

(٣) منهاج السنة (٨/٤٦٤).

(٤) مجموع الفتاوى (١١/٦٧٨).

(٥) الاستقامة (٢/٨٤).

العلم الذي به يعرف ربه، ويعرف إنعامه عليه، وإحسانه إليه، وافتقاره إليه، فذلك يدعوه إلى الإيمان، ﴿أَوْ يَخْشَى﴾ ما ينذر به من العذاب، فذلك أيضاً يدعوه إلى الإيمان) ١. هـ^(١).

وقال رحمه الله: (قال تعالى: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لِّنَا لَعَلَّهٗ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ فهما قالا ذلك راجيين منه التذكرة والخشية لأن الله يرجو ذلك مع علمه بأنه لا يتذكر ولا يخشى) ١. هـ^(٢).

وقال رحمه الله: (وعلى هذا فقوله في قصة فرعون ﴿لَعَلَّهٗ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ جعل ذلك نوعين لما في ذلك من الفوائد.

أحدها: أنه إذا تذكر أنه مخلوق وأن الله خالقه، وليس هو إلهاً ورباً كما ذكر، وذكر إحسان الله إليه. فهذا التذكر يدعوه إلى اعترافه بربوبية الله وتوحيده وإنعامه عليه. فيقتضي الإيمان والشكر، وإن قدر أن الله لا يعذبه.

فإن مجرد كون الشيء حقاً ونافعاً يقتضي طلبه وإن لم يخف ضرراً بعدمه. كما يسارع المؤمنون إلى فعل التطوعات والنوافل لما فيها من النفع، وإن كان لا عقوبة في تركها، كما يحب الإنسان علوماً نافعة وإن لم يتضرر بتركها، وكما قد يحب محاسن الأخلاق ومعالي الأمور لما فيها من المنفعة واللذة في الدنيا والآخرة وإن لم يخف ضرراً بتركها.

فهو إذا تذكر آلاء الله وتذكر إحسانه إليه فهذا قد يوجب اعترافه بحق الله وتوحيده وإحسانه إليه ويقتضي شكره لله وتسليم قوم موسى إليه، وإن لم يخف عذاباً. فهذا قد حصل بمجرد التذكر.

قال: ﴿أَوْ يَخْشَى﴾. ونفس الخشية إذا ذكر له موسى ما توعدده الله به من عذاب الدنيا والآخرة فإن هذا الخوف قد يحمله على الطاعة والانقياد ولو لم يتذكر.

وقد يحصل تذكر بلا خشية، وقد يحصل خشية بلا تذكر، وقد يحصلان جميعاً وهو الأغلب. قال تعالى: ﴿لَعَلَّهٗ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾.

وأيضاً فذكر الإنسان يحصل بما عرفه من العلوم من قبل هذا فيحصل بمجرد عقله، وخشيته تكون بما سمعه من الوعيد. فبالأول يكون ممن له قلب يعقل به، والثاني يكون ممن له أذن يسمع بها.

وقد تحصل الذكرى الموجبة للخير بهذا وبهذا، كما قال تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِنْ مَحِيصٍ ﴿٣٦﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْفَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾﴾ [ق].

الفائدة الثانية: أن التذكر سبب الخشية، والخشية حاصلة عن التذكر. فذكر التذكر الذي هو السبب، وذكر الخشية التي هي النتيجة - وإن كان أحدهما مستلزماً للآخر - كما قال: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْفَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾﴾، وكما قال أهل النار: ﴿لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿١٠﴾﴾ [الملك: ١٠] وقال: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴿٤١﴾﴾ [الحج: ٤١] فكل من النوعين يحصل به النجاة لأنه مستلزم للآخر.

فالذي يسمع ما جاءت به الرسل سمعاً يعقل به ما قالوه ينجو. وإلا فالسمع بلا عقل لا ينفعه، كما قال: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ ﴿١٦﴾﴾ [محمد: ١٦]، وقال: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [يونس: ٤٢] وقال: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١﴾﴾ [يوسف: ١١]، وكذلك العقل بلا سمع لما جاءت به الرسل لا ينفع. وقد اعترف أهل النار بمجيء الرسل فقالوا: ﴿بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ سَمِيٍّ ﴿٩﴾﴾ [الملك: ٩].

وكذلك المعترين بآثار المعذبين الذي قال فيهم: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ﴿٤٦﴾﴾ [الحج: ٤٦]. إنما ينتفعون إذا سمعوا أخبار المعذبين المكذبين للرسل والناجين الذين صدقوهم، فسمعوا قول الرسل وصدقوهم. الفائدة الثالثة: أن الخشية أيضاً سبب للتذكر كما تقدم. فكل منهما قد يكون سبباً للآخر. فقد يخاف الإنسان فيتذكر، وقد يتذكر الأمور المخوفة فيطلب النجاة منها، ويتذكر ما يرجو به النجاة منها فيفعله.

فإن قيل: مجرد ظن المخوف قد يوجب الخوف، فيكف قال: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴿٢٨﴾﴾ [فاطر: ٢٨].

قيل: النفس لها هوى غالب قاهر لا يصرفه مجرد الظن، وإنما يصرفه العلم بأن العذاب واقع لا محالة. وأما من كان يظن أن العذاب يقع ولا يوقن بذلك فلا يترك

هواه، ولهذا قال: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ۗ﴾ [النازعات].
وقال تعالى في ذم الكفار: ﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنْ نُنظَرُ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُستَقِينَ﴾ [الجاثية]، ووصف المتقين بأنهم بالآخرة يوقنون.

ولهذا أقسم الرب على وقوع العذاب والساعة.

وأمر نبيه أن يقسم على وقوع الساعة وعلى أن القرآن حق، فقال: ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُعَذَّبَ قُلُوبَنَا وَرَبِّي لِتَبَعُنَّ﴾ [التغابن: ٧] وقال: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾ [سبأ: ٣] وقال: ﴿يَسْتَسْتَوُونَكَ أَحَقُّ هُوَ قُلُوبًا إِلَىٰ رَبِّهِ إِنَّهُ لَحَقُّ﴾ [يونس: ٥٣] (١) هـ.

وقال رحمه الله:

(فصل)

«في طريقي العلم والعمل»

وقال: قال الله تعالى لموسى وهارون: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لِّئِنَّا عَلَّمَكُم بَدَدًا لَّكُرًا أَوْ يَخْشَىٰ ۗ﴾ وقال في السورة بعينها: ﴿كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا ۗ﴾ [طه] إلى قوله: ﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ أَوْ يُحَدِّثُ لَهُمْ ذِكْرًا ۗ﴾ [طه]، فذكر من كل واحدة من الرسالتين العظيمتين رسالة موسى ورسالة محمد - أن ذلك لأجل التذكر أو الخشية ولم يقل (ليتذكر ويخشى).

ولا قال: ليتقون ويحدث لهم ذكراً، بل جعل المطلوب أحد الأمرين، وهذا مطابق لقوله: ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾ [النحل: ١٢٥]، ونحو ذلك، وقد قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: نعم العبد صهيب، لو لم يخف الله لم يعصه (٢).

وذلك يرجع إلى تحقيق قوله: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ [الفاتحة]، وقوله: ﴿أُولَى الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ﴾ [ص: ٤٥]، وقوله: ﴿أُولَئِكَ

(١) مجموع الفتاوى (١٦/١٧٩ - ١٨٣).

(٢) هذا الأثر غير ثابت. انظر: كشف الخفا للعجلوني (٢/٤٢٨).

ولشيخ الإسلام رسالة في شرح هذا الحديث كانت مغمورة في كتاب «الأشباه والنظائر» للسيوطي، شرح فيها الإشكال اللغوي لهذا الحديث، وأوردتها في كتابي «المستدرك على مجموع الفتاوى» مخطوط «تحت الطبع».

عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٤٦﴾ [البقرة]، وقوله: ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ﴾ ﴿١٤٧﴾ [القمر].

وقوله: ﴿فَمَن آتَبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾ ﴿١٣٣﴾ وَمَن أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٣٤﴾ [طه]، ونحو ذلك. وسبب ذلك أن الخير إما بمعرفة الحق واتباعه في العلم والعمل جميعاً. صلاح القول والعمل: العلم والإرادة، وأصل الإرادة والمحبة وغير ذلك وهو مستلزم له ما لم يحصل معارض مانع، فالعلم بالحق يوجب اتباعه إلا لمعارض راجح، مثل اتباع الهوى بالاستكبار ونحوه، كحال الذين قال الله فيهم: ﴿سَاءَ صِرْفُ عَنِّي الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾ [الأعراف: ١٤٦]، وقال: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤]، وقال: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يَكْذِبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بَقَايَتٍ اللَّهُ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام: ٣٣]، ولهذا قال: ﴿يَتَدَاوَدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [ص: ٢٦] ونحو ذلك فإن أصل الفطرة التي فطر الناس عليها - إذا سلمت من الفساد - إذا رأت الحق اتبعته وأحبته. إذ الحق نوعان: حق موجود؛ فالواجب معرفته والصدق في الإخبار عنه، وضد ذلك الجهل والكذب.

وحق مقصود: وهو النافع للإنسان، فالواجب إرادته والعمل به، وضد ذلك إرادة الباطل واتباعه.

ومن المعلوم أن الله خلق في النفوس محبة العلم دون الجهل، ومحبة الصدق دون الكذب، ومحبة النافع دون الضار، وحيث دخل ضد ذلك فلمعارض من هوى وكبر وحسد ونحو ذلك، كما أنه في صالح الجسد خلق الله فيه محبة الطعام والشراب والملائم له دون الضار، فإذا انتهى ما يضره أو كره ما ينفعه فلمرض في الجسد، وكذلك أيضاً إذا اندفع عَن النفس المعارض من الهوى والكبر والحسد وغير ذلك، أحب القلب ما ينفعه من العلم النافع والعمل الصالح، كما أن الجسد إذا اندفع عنه المرض أحب ما ينفعه من الطعام والشراب، فكل واحد من وجود المقتضي وعدم الدافع: سبب للآخر، وذلك سبب لصلاح حال الإنسان وضدهما سبب لضد ذلك، فإذا ضعف العلم غلبه الهوى^(١) الإنسان وإن وجد العلم والهوى وهما المقتضي والدافع

(١) بياض بالأصل، ولم يشر بشيء لا صاحب الدقائق ولا التفسير الكبير.

فالحكم للغالب، وإذا كان كذلك فصالح بني آدم الإيمان والعمل الصالح، ولا يخرجهم عن ذلك إلا شيطان:

أحدهما: الجهل المضاد للعلم فيكونون ضللاً، والثاني: اتباع الهوى والشهوة اللذين في النفس. فيكونون غواة مغضوباً عليهم.

ولهذا قال: ﴿وَالنَّجْوَى إِذَا هَوَىٰ ﴿١١﴾ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿١٢﴾﴾ [النجم].

وقال: «عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ»^(١)، فوصفهم بالرشد الذي هو خلاف الغي، وبالهدى الذي هو خلاف الضلال، وبهما يصلح العلم والعمل جميعاً، ويصير الإنسان عالماً عادلاً لا جاهلاً ولا ظالماً.

وهم في الصلاح على ضربين:

تارة يكون العبد إذا عرف الحق وتبين له اتبعه وعمل به، فهذا هو الذي يدعى بالحكمة، وهو الذي يتذكر، وهو الذي يحدث له القرآن ذكراً.

والثاني: أن يكون له من الهوى والمعارض ما يحتاج معه إلى الخوف الذي ينهى النفس عن الهوى، فهذا يدعى بالموعظة الحسنة، وهذا هو القسم الثاني المذكور في قوله: ﴿أَوْ يَخْشَىٰ﴾ وفي قوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [طه: ١١٣].

وقد قال في السورة في قصة فرعون: ﴿أَذْهَبَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿١٧﴾ فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَٰهٌ أَن تَزُكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَنَخْسِئُ ﴿١٩﴾﴾ [النازعات]، فجمع بين التزكي والهدى والخشية، كما جمع بين العلم والخشية في قوله: ﴿إِنَّمَا يَخْشَىٰ اللَّهُ مِن عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨]، وفي قوله: ﴿وَفِي نُحُوتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْتَبُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٤]، وفي قوله: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِم أَن اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ أَوْ أُخْرِجُوا مِن دِينِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَنبِيئًا ﴿١١٦﴾ وَإِذَا لَا تَأْتِنَهُمْ مِّنْ لَّدُنَّا آجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٧﴾ وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿١١٨﴾﴾ [النساء].

وذلك لما ذكرناه من أن كل واحد من العلم بالحق الذي يتضمنه التذكر، والذكر الذي يحدثه القرآن، ومن الخشية المانعة من اتباع الهوى، سبب لصلاح حال الإنسان، وهو مستلزم للآخر إذا قوي على ضده، فإذا قوي العلم والتذكر دفع الهوى، وإذا اندفع

الهوى بالخشية أبصر القلب وعلم. وهاتان هما الطريقة العلمية والعملية، كل منهما إذا صحت تستلزم ما تحتاج إليه من الأخرى، وصلاح العبد ما يحتاج إليه ويجب عليه منهما جميعاً، ولهذا كان فساده بانتفاء كل منهما، فإذا انتفى العلم الحق كان ضالاً غير مهتد، وإذا انتفى اتباعه كان غاوياً مغضوباً عليه.

ولهذا قال: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ (الفاتحة)، وقال في ضد ذلك: ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ﴾ [النجم: ٢٣]، وقال: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ﴾ [القصاص: ٥٠]، وقال: ﴿فَمَنْ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾ [طه: ١٢٣]، وقال في ضده: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾ (١٢٤) قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى [طه] وقال: ﴿أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (٥) [البقرة]، وقال في ضده: ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ﴾ (٤٧) [القمر] قال ابن عباس: تكفل الله لمن قرأ القرآن واتبع ما فيه أن لا يضل في الدنيا ولا يشقى في الأخرى^(١) فهو سبحانه يجمع بين الهدى والسعادة وبين الضلال والشقاوة، بين حسنة الدنيا والآخرة، وسيئة الدنيا والآخرة، ويقرن بين العلم النافع والعمل الصالح، كما يقرن بين ضديهما وهو «الضلال»، و«الغي»: اتباع الظن وما تهوى الأنفس. والقرينان متلازمان عند الصحة والسلامة من المعارض، وقد يتخلف أحدهما عن الآخر عند المعارض الراجح، فلهذا إذا كان في مقام الذم والنهي والاستعاذة، كان الذم والنهي لكل منهما: من الضلال والغي، من الجهل والظلم، من الضلال والغضب، ولأن كلاً منهما صار مكروهاً مطلوب العدم، لا سيما وهو مستلزم للآخر، وأما في مقام الحمد والطلب ومنة الله فقد يطلب أحدهما، وقد يطلب كل منهما، وقد يحمد أحدهما، وقد يحمد كل منهما؛ لأن كلاً منهما خير مطلوب محمود، وهو سبب لحصول الآخر، لكن كمال الصلاح يكون بوجودهما جميعاً، وهذا قد يحصل له إذا حصل أحدهما، ولم يعارضه معارض، والداعي للخلق الأمر لهم يسلك بذلك طريق الرفق واللين فيطلب أحدهما، لأنه مطلوب في نفسه، وهو سبب للآخر، فإن ذلك أرفق من أن يأمر العبد بهما جميعاً، فقد يثقل ذلك عليه، والأمر ببناء والنهي هدم، والأمر هو يُحْصَلُ العافية بتناول الأدوية، والنهي من باب الحماية والبناء. والعافية تأتي شيئاً بعد شيء، وأما الهدم فهو أعجل،

والحمية أعم، وإن كان قد يحصل فيهما ترتيب أيضاً، فكيف إذا كان كل واحد من الأمرين سبباً وطريقاً إلى حصول المقصود مع حصول الآخر.

فقوله سبحانه: ﴿لَعَلَّهُ يَذَّكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ وقوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحَدِّثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾ [طه: ١١٣] طلب وجود أحد الأمرين بتبليغ الرسالة، وجاء بصيغة: «لعل» تسهيلاً للأمر ورفقاً وبياناً؛ لأن حصول أحدهما طريق إلى حصول المقصود، فلا يُطلبان جميعاً في الابتداء، ولهذا جاء في الأثر: إن من ثواب الحسنة الحسنه بعدها، وإن من عقوبة السيئة السيئة بعدها، لا سيما أصول الحسنات التي تستلزم سائرهما، مثل الصدق فإنه أصل الخير، كما في الصحيحين عن ابن مسعود عن النبي ﷺ أنه قال: «عليكم بالصدق فإن الصدق يهدي إلى البر وإن البر يهدي إلى الجنة ولا يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقاً، وإياكم والكذب فإن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار ولا يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذاباً»، ولهذا قال سبحانه: ﴿هَلْ أَنتُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ ﴿٣٦﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٣٧﴾﴾ [الشعراء].

وقال: ﴿وَلِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٧﴾ يَسْمَعُ ءَايَاتِ اللَّهِ تُنزَّلُ عَلَيْهِ ثُمَّ يَصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا﴾ [الجاثية]، ولهذا يذكر أن بعض المشايخ أراد أن يؤدب بعض أصحابه الذين لهم ذنوب كثيرة فقال: يا بني أنا أمرك بخصلة واحدة فاحفظها لي، ولا أمرك الساعة بغيرها، التزم الصدق وإياك والكذب، وتوعده على الكذب بوعيد شديد فلما استلزم ذلك الصدق دعاه إلى بقية الخير، ونهاه عما كان عليه، فإن الفاجر لا حد له في الكذب^(١).

﴿قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤١﴾﴾

(وكذلك قوله لموسى وهارون: ﴿إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ فإنه معهما بالتأييد والنصر والإعانة على فرعون وقومه، كما إذا رأى الإنسان من يخاف فقال له من ينصره نحن معك أي معاونوك وناصروك على عدوك) ا.هـ^(٢).

وقال رحمه الله: (وسأل ابن شاهين الجنيد عن معنى «مع» فقال: على معنيين مع الأنبياء بالنصرة والكلاءة: قال الله: ﴿إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ ومع العامة بالعلم والإحاطة: قال الله تعالى: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾ [المجادلة: ٧]،

فقال ابن شاهين: «مثلك يصلح أن يكون دالاً للأمة على الله».

قلت: هذا كلام حسن متفق على صحة معناه بين أئمة الهدى، وكانوا يقولون مثل هذا الكلام رداً على من يقول من الجهمية: إن الحق بذاته في كل مكان، وينكر أن يكون فوق العرش، وقد وقع في ذلك طائفة من المتصوفة حتى جعلوه عين الموجودات، ونفس المصنوعات، كما يقوله أهل الاتحاد العام) ١. هـ^(١).

وقال رحمه الله: (قول الله تعالى لموسى: ﴿إِنِّي مَعَكُمْ أَسْمَعُ وَأَرَى﴾ يقول: في الدفع عنكما) ١. هـ^(٢).

﴿قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى﴾ ٤٩.

(ولما قال فرعون: ﴿قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى﴾ ٤٩ قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى ﴿٥٠﴾ فكان جواب موسى له جواباً للمتجاهل الذي يظهر أنه لا يعرف الحق وهو معروف عنده، فإن سؤال فرعون بقوله: ﴿وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: ٢٣] استفهام إنكار لوجوده، ليس هو استفهام طلب لتعريف ماهيته كما ظن ذلك بعض المتأخرين، وقالوا: إن فرعون طالبه ببيان الماهية، فعدل عن ذلك لامتناع الجواب بذكرها، فإن هذا غلط منهم، فإن فرعون لم يكن مقرراً بالصانع البتة، بل كان جاحداً له، وكان استفهامه استفهام إنكار لوجوده، ولهذا قال: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾ [القصص: ٣٨]، وقال: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾ [النازعات: ٢٤] ولو كان مقرراً بوجوده طالباً لمعرفة ماهيته لم يقل هذا، ولكان موسى ما أجابه إجابة لم تذكر فيها ماهيته) ١. هـ^(٣).

﴿كُلُوا وَارْعَوْا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ ٥٤.

(ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْعُقُولِ﴾ أي العقول) ١. هـ^(٤).

فصل

قال شيخ الإسلام تقي الدين أحمد بن تيمية رحمه الله تعالى في قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذِهِ لَسَآئِرٌ﴾.

فإن هذا مما أشكل على كثير من الناس، فإن الذي في مصاحف المسلمين ﴿إِنَّ

(١) الاستقامة (١/١٨٧ - ١٨٨).

(٢) بيان تلبس الجهمية (٢/٥٥١)، درء تعارض العقل (٦/١٤٦).

(٣) منهاج السنة (٢/٢٧١). (٤) مجموع الفتاوى (١٠/٤٣٦).

هَذَا نِ الْبَالْفِ؁ وَبِهَذَا قَرَأَ جَمَاهِيرُ الْقِرَاءِ وَأَكْثَرُهُمْ يَقْرَأُ (إِنَّ) مُشَدَّدَةً؁ وَقَرَأَ ابْنُ كَثِيرٍ وَحَفْصُ عَنِّ عَاصِمٍ ﴿إِنْ﴾ مُخَفَّفَةً؁ لَكِنِ ابْنُ كَثِيرٍ يَشْدُدُ نُونَ (هَذَا) دُونَ حَفْصِ؁ وَالْإِشْكَالُ مِنْ جِهَةِ الْعَرَبِيَّةِ عَلَى الْقِرَاءَةِ الْمَشْهُورَةِ؁ وَهِيَ قِرَاءَةُ نَافِعِ وَابْنِ عَامِرٍ وَحَمْزَةُ وَالْكَسَائِيُّ؁ وَأَبِي بَكْرٍ عَنِّ عَاصِمٍ؁ وَجَمْهُورُ الْقِرَاءِ عَلَيْهَا؁ وَهِيَ أَصَحُّ الْقِرَاءَاتِ لِفِظًا وَمَعْنَى ^(١).

وهذا يتبين بالكلام على ما قيل فيها.

فإن منشأ الإشكال: أن الاسم المثنى يعرب في حال النصب والخفض بالياء؁ وفي حال الرفع بالألف؁ وهذا متواتر من لغة العرب؁ لغة القرآن وغيرها في الأسماء المبنية كقوله: ﴿وَلِأَبْوَيْهِ لِكُلِّ وَاِحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ﴾ [النساء: ١١]؁ ثم قال: ﴿فَإِن لَّمْ يَكُنْ لَّهُ وُلْدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ﴾ [النساء: ١١]؁ وقال: ﴿وَرَفَعَ أَبْوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ﴾ [يوسف: ١٠٠]؁ وقال: ﴿وَأَمْسَحُوا رُءُوسِكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْ الْعِجَابِ﴾ [المائدة: ٦]؁ ولم يقل: الكعبان. وقال: ﴿وَأَضْرَبْ لَهُمْ مِّثْلًا مِّثْلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾ إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ﴾ [يسر] ولم يقل: اثنان وقال: ﴿قَلْنَا أَحْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ [هود: ٤٠] وقال: ﴿ثُمَّ نَبِيَّةً أَرْسَلْنَا مِنْ أَلْسَانِنَا اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْرِزِ اثْنَيْنِ قُلْ الْذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَيَيْنِ﴾ [الأنعام: ١٤٣]؁ ولم يقل: اثنان؁ ولا الذكران ولا أنثيان وقال: ﴿رَمَى كُلِّ نِسَاءٍ خَلْفًا زَوْجَيْنِ﴾ [الذاريات: ٤٩]؁ ولم يقل: زوجان؁ وقال: ﴿فَإِن كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ﴾ [النساء: ١١] ولم يقل: اثنتان.

ومثل هذا كثير مشهور في القرآن وغيره فظن النحاة أن الأسماء المبنية المبنية مثل هذين واللذين تجري هذا المجرى؁ وأن المبني في حال الرفع يكون بالألف؁ ومن هنا نشأ الإشكال؁ وكان أبو عمرو إماماً في العربية فقرأ بما يعرف من العربية (إن هذين لساحران).

وقد ذكر أن له سلفاً في هذه القراءة؁ وهو الظن به أنه لا يقرأ إلا بما يرويه؁ لا بمجرد ما يراه؁ وقد روي عنه أنه قال: إني لأستحيي من الله أن أقرأ: ﴿إِنَّ هَذَا نِ﴾ وذلك لأنه لم ير لها وجهاً من جهة العربية؁ ومن الناس من خطأ أبا عمرو في هذه

(١) زاد المسير (٢٩٦/٥) ابن جرير (١٦/١٨٠).

القراءة، ومنهم الزجاج، قال: لا أجزى قراءة أبي عمرو، خلاف المصحف^(١).

وأما القراءة المشهورة الموافقة لرسم المصحف فاحتج لها كثير من النحاة بأن هذه لغة بني الحارث بن كعب، وقد حكى ذلك غير واحد من أئمة العربية.

قال المهدي: بنو الحارث بن كعب يقولون: ضربت الزيدان، ومررت بالزيدان، كما تقول: جاءني الزيدان.

قال المهدي: حكى ذلك أبو زيد والأخفش والكسائي والفراء^(٢).

وحكى أبو الخطاب أنها لغة بني كنانة^(٣).

وحكى غيره أنها لغة لخثعم.

ومثله قول الشاعر:

تزود منا بين أذناه ضربة دعته إلى هاوي التراب عقيم

وقال ابن الأنباري^(٤): هي لغة لبني الحارث بن كعب وقريش.

قال الزجاج: وحكى أبو عبيدة عن أبي الخطاب وهو رأس من رؤوس الرواة أنها لغة لكنانة يجعلون ألف الاثني في الرفع والنصب والخفض على لفظ واحد، وأنشدوا:

فأطرق إطراق الشجاع ولو يجد مساعاً لنا به الشجاع لصمما

وقال: ويقول هؤلاء: ضربته بين أذناه^(٥) قلت: بنو الحارث بن كعب هم أهل

نجران. ولا ريب أن القرآن لم ينزل بهذه اللغة بل المثني من الأسماء المبنية في جميع

القرآن هو بالياء في النصب والجر كما تقدمت شواهد، وقد ثبت في الصحيح عن

عثمان أنه قال: إن القرآن نزل بلغة قريش، وقال للرهط القرشيين الذين كتبوا المصحف

هم وزيد: إذا اختلفتم في شيء فاكتبوه بلغة قريش، فإن القرآن نزل بلغتهم، ولم يختلفوا

إلا في حرف، وهو التابوت فرفعوه إلى عثمان، فأمر أن يكتب بلغة قريش رواه البخاري

في صحيحه^(٦).

وعن أنس أن حذيفة بن اليمان قدم على عثمان وكان يغازي أهل الشام في فتح

أرمينية وأذربيجان مع أهل العراق، فأفزع حذيفة اختلافهم في القراءة، فقال حذيفة

(١) زاد المسير (٥/٢٩٩).

(٢) زاد المسير (٥/٢٩٨).

(٣) ابن جرير (١٦/١٨٠).

(٤) زاد المسير (٥/٢٩٨) والبيت في الطبري (١٦/١٨٠).

(٥) زاد المسير (٥/٢٩٨) والبيت في الطبري (١٦/١٨٠).

(٦) البخاري (٤٩٨٤).

لعثمان: يا أمير المؤمنين أدرك هذه الأمة قبل أن يختلفوا في الكتاب اختلاف اليهود والنصارى، فأرسل إلى حفصة أن أرسلني إلينا بالصحف ننسخها في المصاحف ثم نردها إليك، فأرسلت بها حفصة إلى عثمان، فأمر زيد بن ثابت، وعبد الله بن الزبير، وسعيد بن العاص، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام فنسخوها في المصاحف وقال عثمان للرهط القرشيين الثلاثة: إذا اختلفتم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش، وإنما نزل بلسانهم ففعلوا، حتى إذا نسخوا الصحف في المصاحف رد عثمان الصحف إلى حفصة، فأرسل إلى كل أفق بمصحف مما نسخوا وأمر بما سواه من القرآن في كل صحيفة أو مصحف أن يحرق.

وهذه الصحيفة التي أخذها من عند حفصة هي التي أمر أبو بكر وعمر بجمع القرآن فيها لزيد بن ثابت، وحديثه معروف في الصحيحين وغيرهما، وكانت بخطه، فلهذا أمر عثمان أن يكون هو أحد من ينسخ المصاحف من تلك الصحف، ولكن جعل معه ثلاثة من قريش ليكتب بلسانهم، فلم يختلف لسان قريش والأنصار إلا في لفظ «التابوه» و«التابوت» فكتبوه «التابوت» بلغة قريش.

وهذا يبين أن المصاحف التي نسخت كانت مصاحف متعددة، وهذا معروف مشهور، وهذا مما يبين غلط من قال في بعض الألفاظ إنه غلط من الكاتب، أو نقل ذلك عن عثمان، فإن هذا ممتنع لوجه:

منها: تعدد المصاحف واجتماع جماعة على كل مصحف، ثم وصول كل مصحف إلى بلد كبير فيه كثير من الصحابة والتابعين يقرأون القرآن، ويعتبرون ذلك بحفظهم، والإنسان إذا نسخ مصحفاً غلط في بعضه عرف غلظه بمخالفة حفظه القرآن وسائر المصاحف، فلو قدر أنه كتب كاتب مصحفاً، ثم نسخ سائر الناس عنه من غير اعتبار للأول والثاني أمكن وقوع الغلط في هذا، وهنا كل مصحف إنما كتبه جماعة، ووقف عليه خلق عظيم ممن يحصل التواتر بأقل منهم، ولو قدر أن الصحيفة كان فيها لحن فقد كتب فيها جماعة لا يكتبون إلا بلسان قريش، فكيف يتفقون كلهم على أن يكتبوه ﴿إِنَّ هَٰذَٰنِ﴾ وهم يعلمون أن ذلك لحن لا يجوز في شيء من لغاتهم أو ﴿وَالْمُؤَيَّنِ﴾ الصَّلَاةِ ﴿النساء: ١٦٢﴾ وهم يعلمون أن ذلك لحن كما زعم بعضهم.

قال الزجاج^(١) في قوله: ﴿وَالْمُؤَيَّنِ الصَّلَاةِ﴾ قول من قال: إنه خطأ - بعيد جداً:

(١) وقد مر الإشارة لذلك.

لأن الذين جمعوا القرآن هم أهل اللغة والقدوة، فكيف يتركون شيئاً يصلحه غيرهم فلا ينبغي أن ينسب هذا إليهم.

وقال ابن الأنباري: حديث عثمان لا يصح لأنه غير متصل، ومحال أن يؤخر عثمان شيئاً ليصلحه من بعده.

قلت: ومما يبين كذب ذلك: أن عثمان لو قدر ذلك فيه، فإنما رأى ذلك في نسخة واحدة، فأما أن تكون جميع المصاحف اتفقت على الغلط وعثمان قد رآه في جميعها وسكت: فهذا ممتنع عادة وشراً من الذين كتبوا، ومن عثمان، ثم من المسلمين الذين وصلت إليهم المصاحف ورأوا ما فيها، وهم يحفظون القرآن، ويعلمون أن فيه لحناً لا يجوز في اللغة، فضلاً عن التلاوة، وكلهم يقر هذا المنكر لا يغيره أحد، فهذا مما يعلم بطلانه عادة، ويعلم من دين القوم الذين لا يجتمعون على ضلالة، بل يأمرون بكل معروف، وينهون عن كل منكر، أن يدعوا في كتاب الله منكرًا لا يغيره أحد منهم، مع أنهم لا غرض لأحد منهم في ذلك، ولو قيل لعثمان: مر الكاتب أن يغيره لكان تغييره من أسهل الأشياء عليه.

فهذا ونحوه مما يوجب القطع بخطأ من زعم أن في المصحف لحنًا أو غلطاً، وإن نقل ذلك عن بعض الناس ممن ليس قوله حجة، فالخطأ جائز عليه فيما قاله بخلاف الذين نقلوا ما في المصحف وكتبوه وقرأوه، فإن الغلط ممتنع عليهم في ذلك، وكما قال عثمان إذا اختلفتم في شيء فاكتبوه بلغة قريش، وكذلك قال عمر لابن مسعود: أقرئ الناس بلغة قريش، ولا تقرئهم بلغة هذيل؛ فإن القرآن لم ينزل بلغة هذيل.

وقوله تعالى في القرآن: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ﴾ [إبراهيم: ٤] يدل على ذلك فإن قومه هم قريش كما قال: ﴿وَكَذَّبَ بِهٖ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ﴾ [الأنعام: ٦٦] وأما كنانة فهم جيران قريش، والناقل عنهم ثقة، ولكن الذي ينقل ينقل ما يسمع، وقد يكون سمع ذلك في الأسماء المبهمة المبنية فظن أنهم يقولون ذلك في سائر الأسماء بخلاف من سمع «بين أذناه»، و«النباه» فإن هذا صريح في الأسماء التي ليست مبهمة، وحينئذ فالذي يجب أن يقال إنه لم يثبت أنه لغة قريش، بل ولا لغة سائر العرب أنهم ينطقون في الأسماء المبهمة إذا تليت بالياء، وإنما قال ذلك من قاله من النحاة قياساً، جعلوا باب التثنية في الأسماء المبهمة كما هو في سائر الأسماء، وإلا فليس في القرآن شاهد

يدل على ما قالوه، وليس في القرآن اسم مبهم مبني في موضع نصب أو خفض إلا هذا ولفظه ﴿هَذَا﴾ فهذا نقل ثابت متواتر لفظاً ورسماً.

ومن زعم أن الكاتب غلط فهو الغالط غلطاً منكراً، كما قد بسط في غير هذا الموضوع، فإن المصحف منقول بالتواتر وقد كتبت عدة مصاحف، وكلها مكتوبة بالألف، فكيف يتصور في هذا غلط.

وأيضاً فإن القراء إنما قرأوا بما سمعوه من غيرهم، والمسلمون كانوا يقرأون «سورة طه» على عهد رسول الله ﷺ وأبي بكر وعمر وعثمان وعلي، وهي من أول ما نزل من القرآن، قال ابن مسعود: بنو إسرائيل والكهف ومريم وطه والأنبياء من العتاق الأول وهن من تلادي. رواه البخاري عنه.

وهي مكية باتفاق الناس.

قال أبو الفرج وغيره: هي مكية بإجماعهم، بل هي من أول ما نزل، وقد روي: أنها كانت مكتوبة عند أخت عمر، وأن سبب إسلام عمر كان لما بلغه إسلام أخته، وكانت السورة تقرأ عندها. فالصحابة لا بد أن قد قرءوا هذا الحرف، ومن الممتنع أن يكونوا كلهم قرءوه بالياء كأبي عمر، فإنه لو كان كذلك لم يقرأها أحد إلا بالياء، ولم تكتب إلا بالياء فعلم أنهم أو غالبهم كانوا يقرءونها بالألف كما قرأها الجمهور، وكان الصحابة بمكة والمدينة والشام والكوفة والبصرة يقرأون هذه السورة في الصلاة وخارج الصلاة، ومنهم سمعها التابعون، ومن التابعين سمعها تابعوهم، فيمتنع أن يكون الصحابة كلهم قرءوها بالياء مع أن جمهور القراء لم يقرأوها إلا بالألف، وهم أخذوا قراءتهم عن الصحابة، أو عن التابعين عن الصحابة، فهذا مما يعلم به قطعاً أن عامة الصحابة إنما قرءوها بالألف كما قرأ الجمهور، وكما هو مكتوب.

وحينئذ فقد علم أن الصحابة إنما قرأوا كما علمهم الرسول، وكما هو لغة للعرب، ثم لغة قريش، فعلم أن هذه اللغة الفصيحة المعروفة عندهم في الأسماء المبهمة تقول: «إن هذان»، «ومررت بهذان» تقولها في الرفع والنصب والخفض بالألف، ومن قال: إن لغتهم أنها تكون في الرفع بالألف طوب بالشاهد على ذلك والنقل عن لغتهم المسموعة منهم نثراً ونظماً، وليس في القرآن ما يشهد له ولكن عمدته القياس.

وحينئذ فنقول: قياس هذا بغيرها من الأسماء غلط، فإن الفرق بينهما ثابت عقلاً

وسماعاً، أما النقل والسماع فكما ذكرناه، وأما العقل والقياس فقد تفتن للفرق غير واحد من حذاق النحاة، فحكى ابن الأنباري وغيره عن الفراء قال: ألف التثنية في ﴿هَذَا﴾ هي ألف هذا، والنون فرقت بين الواحد والاثنين، كما فرقت بين الواحد والجمع نون الذين، وحكاه المهدي وغيره عن الفراء، ولفظه قال: إنه ذكر أن الألف ليست علامة التثنية بل هي ألف هذا، فزدت عليها نوناً، ولم أغيرها كما زدت على الياء من الذي، فقلت الذين في كل حال».

قال؛ وقال بعض الكوفيين: الألف في هذا مشبهة بفعالان فلم تغير كما [لم] تغير.

قال: وقال الجرجاني^(١) لما كان اسماً على حرفين أحدهما حرف مد ولين، وهو كالحركة، ووجب حذف إحدى الألفين في التثنية لم يحسن حذف الأولى، لثلا يبقى الاسم على حرف واحد فحذف علم التثنية، وكان النون يدل على التثنية، ولم يكن لتغيير النون الأصلية الألف وجه، فثبت في كل حال كما يثبت في الواحد.

قال المهدي: وسأل إسماعيل القاضي ابن كيسان عن هذه المسألة فقال:

لما لم يظهر في المبهم إعراب في الواحد ولا في الجمع جرت التثنية على ذلك مجرى الواحد، إذ التثنية يجب أن لا تغير، فقال إسماعيل: ما أحسن ما قلت لو تقدمك أحد بالقول فيه حتى يؤنس به، فقال له ابن كيسان: فليقل القاضي حتى يؤنس به، فتبسم.

قلت: بل تقدمه الفراء وغيره، والفراء في الكوفيين مثل سيبويه في البصريين، لكن إسماعيل كان اعتماده على نحو البصريين، والمبرد كان خصيصاً به.

وبيان هذا القول: أن المفرد «ذا» فلو جعلوه كسائر الأسماء لقالوا في التثنية: «ذوان» ولم يقولوا: ذان كما قالوا عصوان ورجوان ونحوهما من الأسماء الثلاثية و«ها» حرف تنبيه، وقد قالوا فيما حذفوا لأمه: أبوان فردته التثنية إلى أصله، وقالوا في غير هذا^(٢) ويدان وأما ذا فلم يقولوا ذوان، بل قالوا^(٣) كما فعلوه في ذو وذات التي بمعنى

(١) هو عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجاني، أبو بكر، واضع أصول البلاغة، كان من أئمة اللغة من أهل جرجان (بين طبرستان وخراسان) له شعر رقيق، من كتبه أسرار البلاغة، ودلائل الإعجاز، والجمل في النحو، والمغني في شرح الإيضاح، والإعجاز.

(٢) بياض في الأصل. (٣) بياض في الأصل.

صاحب فقالوا: هو ذو علم، وهما ذوا علم كما قال: ﴿ذَوَاتَا أَفْنَانٍ﴾ [الرحمن]، وفي اسم الإشارة قالوا، ذان، وتان، كما قال: ﴿فَذَانِكَ بُرْهَانٍ مِّن رَّبِّكَ﴾ [القصص]: [٣٢]، فإن «ذا» بمعنى صاحب هو اسم معرب، فتغير إعرابه في الرفع والنصب والجر، فقيل: ذو وذا وذى وأما المستعمل في الإشارة والأسماء الموصولة والمضمرات هي مبنية، لكن أسماء الإشارة لم تفرق لا في واحده ولا في جمعه بين حال الرفع والنصب والخفض، فكذا في تثنيته.

بل قالوا: قام هذا، وأكرمت هذا، ومررت بهذا، وكذلك هؤلاء في الجمع، فكذا المثنى، قال هذان، وأكرمت هذان، ومررت بهذان، فهذا هو القياس فيه أن يلحق مثناه بمفرده وبمجموعه لا يلحق بمثنى غيره الذي هو أيضاً معتبر بمفرده ومجموعه، فالأسماء المعربة ألحق مثناها بمفردها ومجموعها تقول: رجل، ورجلان، ورجال، فهو معرب في الأحوال الثلاثة: يظهر الإعراب في مثناه، كما ظهر في مفردة ومجموعه.

فتبين أن الذين قالوا: إن مقتضى العربية أن يقال: «إن هذين» ليس معهم بذلك نقل عن اللغة المعروفة في القرآن التي نزل بها القرآن، بل هي أن يكون المثنى من أسماء الإشارة مبنياً في الأحوال الثلاثة على لفظ واحد كمفرد أسماء الإشارة ومجموعها، وحينئذ فإن قيل: إن الألف هي ألف المفرد زيد عليها النون، أو قيل: هي علم للتثنية وتلك حذف، أو قيل بل هذه الألف تجمع هذا، وهذا معنى جواب ابن كيسان وقول الفراء مثله في المعنى، وكذلك قول الجرجاني وكذلك قول من قال: إن الألف فيه تشبه ألف يفعلان، ثم يقال: قد يكون الموصول كذلك كقوله: ﴿وَالَّذَانِ يَأْتِيَنَّهَا مِنكُمْ﴾ [النساء: ١٦]، فإن ثبت أن لغة قريش أنهم يقولون رأيت اللذين فعلاً، ومررت باللذين فعلاً، وإلا فقد يقال: هو بالألف في الأحوال الثلاثة؛ لأنه اسم مبني، والألف فيه بدل الياء في الذين، وما ذكره الفراء وابن كيسان وغيرهما يدل على هذا، فإن الفراء شبه هذا بالذين، وتشبيه اللذان به أولى، وابن كيسان علل بأن المبهم مبني لا يظهر فيه الإعراب، فجعل مثناه كمفرده ومجموعه، وهذا العلم يأتي في الموصول.

يؤيد ذلك أن المضمرات من هذا الجنس، والمرفوع والمنصوب لها ضمير متصل ومنفصل، بخلاف المجرور فإنه ليس له إلا متصل، لأن المجرور لا يكون إلا بحرف أو مضاف لا يقدم على عامله فلا يتفصل عنه، فالضمير المتصل في الواحد الكاف من

أكرمته ومررت بك، وفي الجمع أكرمتمكم ومررت بكم، وفي التثنية زيدت الألف في النصب والجر فيقال أكرمتمكما ومررت بكما، كما نقول في الرفع، ففي الواحد والجمع فعلت وفعلتم، وفي التثنية فعلتما بالألف وحدها زيدت علماً على التثنية في حال الرفع والنصب والجر كما زيدت في المنفصل في قوله: «إياكما» و«أنتما».

فهذا كله مما يبين أن لفظ المثنى في الأسماء المبنية في الأحوال الثلاثة نوع واحد، لم يفرقوا بين مرفوعه وبين منصوبه ومجروره كما فعلوا ذلك في الأسماء المعربة، وأن ذلك في المثنى أبلغ منه في لفظ الواحد والجمع، إذ كانوا في الضمائر يفرقون بين ضمير المنصوب والمجرور، وبين ضمير المرفوع في الواحد والمثنى، ولا يفرقون في المثنى وفي لفظ الإشارة والموصول، ولا يفرقون بين الواحد والجمع وبين المرفوع وغيره، ففي المثنى بطريق الأولى، والحمد لله وحده، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً.

ذكر شيخنا شيخ الإسلام ابن تيمية هذه المسألة في موضع آخر وذكر فيها هذا الاعتراض.

فصل

وقد يعترض على ما كتبناه أولاً بأنه جاء أيضاً في غير الرفع بالياء كسائر الأسماء قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرْنَا الَّذِينَ ضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ﴾ [فصلت: ٢٩]، ولم يقل «الذنان أضلانا».

كما قيل في (الذين) إنه بالياء في الأحوال الثلاثة، وقال تعالى في قصة موسى: ﴿إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنَكِّمَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ﴾ [القصص: ٢٧]، ولم يقل «هاتان» و«هاتان» تبع لابنتي وقد يسمى عطف بيان وهو يشبه الصفة كقوله: ﴿وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً﴾ [هود: ٦١]. لكن الصفة تكون مشتقة أو في معنى المشتق وعطف البيان يكون بغير ذلك كأسماء الأعلام وأسماء الإشارة، وهذه الآية نظير قوله: ﴿إِنَّ هَذَانِ لَسَاحِرِينَ﴾ وأما قوله: ﴿أَرْنَا الَّذِينَ ضَلَّانَا﴾ فقد يفرق بين اسم الإشارة والموصول بأن اسم الإشارة على حرفين بخلاف الموصول فإن الاسم هو «الذنان» عدة حروف، وبعده يزداد على الجمع فتكسر الذال وتفتح النون، وعلم التثنية تفتح الذال وتكسر النون والألف فقلت^(١) في

(١) بياض في الأصل.

النصب والجر؛ لأن الاسم الصحيح إذا جمع جمع التصحيح كسر آخره في النصب وفي الجر، وفتحت نونه، وإذا ثني فتح آخره، وكسرت نونه في الأحوال الثلاثة.

وهذا يبين أن الأصل في التثنية هي الألف، وعلى هذا فيكون في إعرابه لغتان جاء بهما القرآن تارة يجعل كالذان، وتارة يجعل كالذين، ولكن في قوله: ﴿إِحْدَى أَبْنَى هَتَيْنِ﴾ [القصص: ٢٧]، كان هذا أحسن من قوله: «هاتان» لما فيه من اتباع لفظ المثني بالياء فيهما، ولو قيل: هاتان لأشبه^(١)، كما لو قيل: إن ابنتي هاتان، فإذا جعل بالياء علم تابع مبيّن عطف بيان لتمام معنى الاسم، لا خبر تتم به الجملة.

وأما قوله: ﴿إِنْ هَذَا لَسَلْحَرَانِ﴾ فجاء اسماً مبتدأ، اسم إن، وكان مجيئه بالألف أحسن في اللفظ من قولنا: إن هذين لساحران، لأن الألف أخف من الياء، ولأن الخبر بالألف، فإذا كان كل من الاسم والخبر بالألف كان أتم مناسبة، وهذا معنى صحيح، وليس في القرآن ما يشبه «هذا» من كل وجه بالياء.

فتبين أن هذا المسموع والمتواتر ليس في القياس الصحيح ما يناقضه، لكن بينهما فروق دقيقة، والذين استشكلوا هذا إنما استشكلوه من جهة القياس، لا من جهة السماع، ومع ظهور الفرق يعرف ضعف القياس.

وقد يجيب من يعتبر كون الألف في «هذا» هو المعروف في اللغة بأن يفرق بين قوله: ﴿إِنْ هَذَا لَسَلْحَرَانِ﴾ وقوله: ﴿إِحْدَى أَبْنَى هَتَيْنِ﴾ [القصص: ٢٧] أن هذا تثنية مؤنث، وذلك تثنية مذكر، والمذكر الفرد منه «ذا» بالألف، فزيدت فوق نون للتثنية، وأما المؤنث فمفردة «ذي» أو «ذه» أو «ته» وقوله: ﴿إِحْدَى أَبْنَى هَتَيْنِ﴾ تثنية تي بالياء، فكان جعلها بالياء في النصب والجر أشبه بالمفرد بخلاف تثنية المذكر، وهو «ذا»، فإنه بالألف، فإقراره بالألف أنسب وهذا فرق بين تثنية المؤنث وتثنية المذكر. والفرق بينه وبين الذين قد تقدم.

وحينئذ فهذه القراءة هي الموافقة للسماع والقياس ولم يشتهر ما يعارضها من اللغة التي نزل بها القرآن، والله أعلم.

وقوله: ﴿إِحْدَى أَبْنَى هَتَيْنِ﴾ هو كقول النبي ﷺ: «من أكل من هاتين الشجرتين

الخبثتين فلا يقربن مسجدنا، فإن الملائكة تتأذى مما يتأذى منه الآدميون»^(١). ومثله في الموصول قول ابن عباس لعمر: أخبرني عن المرأتين اللتين قال الله فيهما: ﴿وَلَوْ أَنَّ تَطْلَهْرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ﴾ الآية [التحریم: ٤٤]^(٢).

﴿قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا جِأَهُمْ وَعَصِيَّتُهُمْ بِخَيْلٍ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهُ تَسَعَى﴾^(٣).

(السحرة لما قالوا: ﴿إِنَّمَا أَنْ تُلْقِيَ وَإِنَّمَا أَنْ تَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى﴾ إلى قوله: ﴿فَأَرْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى﴾^(٤) قلنا لا تخف إنك أنت الأعلى^(٥)، فهذا موسى رسول الله وكليمه كان قد أخبره الله ﷻ بأن فرعون وملاه لا يصلون إليهما، وأنه هو الغالب، ثم أوجس في نفسه خيفة بعد ذلك... فيأجس موسى لم يكن إلا لنسيانه الوعد المتقدم) ١. هـ^(٦).

وقال رحمه الله: (وكذلك قوله: ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى﴾^(٧) قلنا لا تخف إنك أنت الأعلى^(٨) هو نهي عن الخوف مقرون بما يوجب زواله) ١. هـ^(٩).

﴿وَأَلْقَى مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفَ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدٌ سِحْرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَقْبَى﴾^(١٠).

(وروى أحمد وأبو داود وابن ماجه وغيرهم بإسناد صحيح عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: (من اقتبس علماً من النجوم اقتبس شعبة من السحر؛ زاد ما زاد)^(١١) فقد صرح رسول الله ﷺ بأن علم النجوم من السحر؛ وقد قال الله تعالى: ﴿وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَقْبَى﴾ وهكذا الواقع؛ فإن الاستقراء يدل على أن أهل النجوم لا يفلحون؛ لا في الدنيا ولا في الآخرة) ١. هـ^(١٢).

وقال رحمه الله: (فالساحر والعائن وغيرهما ممن يتصرف بقوى الأنفس يفعل في المنفصل ما يفعله القادر في المتصل، فهذا من أفعال العباد المعروفة المقدورة، وأما قلب الأعيان إلى ما ليس في طبعها الانقلاب إليه كمصير الخشب حيواناً حساساً متحركاً بالإرادة يبلع عصياً وحبالاً ولا يتغير، فليس هذا من جنس مقدور البشر لا معتاداً ولا نادراً، ولا يحصل بقوى نفس أصلاً، ولهذا لما رأى سحرة فرعون ذلك

(١) مرّ تخريجه. (٢) مجموع الفتاوى (١٥/٢٦١ - ٢٦٤).

(٣) منهاج السنة (٨/٤٦٧).

(٤) منهاج السنة (٨/٤٦٤).

(٥) أبو داود (٣٩٠٥)، وابن ماجه (٣٧٢٦)، وأحمد (٣١١/١)، والبيهقي (٨/١٣٨)، وابن أبي

شيبه (٨/٤١٤)، والبخاري في السنة (١٢/١٨٢)، والحديث صحيح.

(٦) مجموع الفتاوى (٣٥/١٩٣).

علموا أنه خارج عن طريقة السحر: ﴿فَأَلْقَى السَّحْرَةَ سَاجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوا ءَأَمَّا رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [الشعراء]، وهذه الحادثة الخارقة للعادة فيها إثبات الصانع وإثبات نبوة أنبيائه، فإن حدوث هذا الحادث على هذا الوجه في مثل ذلك المقام، يوجب علماً ضرورياً أنه من القادر المختار لتصديق موسى ونصره على السحرة، كما قال تعالى: ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى ﴿٤٧﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى ﴿٤٨﴾ وَأَلْقَى مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفَ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدٌ سَاحِرٌ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَقْبَى ﴿٤٩﴾﴾ ا. هـ (١).

وقال رحمه الله: (وقد أخبر سبحانه بسوء عاقبة من ترك الإيمان والتقوى في غير آية في الدنيا والآخرة، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَقْبَى﴾ والمफलح الذي ينال المطلوب وينجو من المرهوب، فالساحر لا يحصل له ذلك، وفي سنن أبي داود عن النبي ﷺ أنه قال: «من اقتبس شعبة من النجوم فقد اقتبس شعبة من السحر (٢)» ا. هـ (٣).

وقال رحمه الله: (وقد قال تعالى في حق الساحر: ﴿وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَقْبَى﴾ وقال تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَقَّ يَقُولَا إِلَّا مَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾ إلى قوله: ﴿وَلَيْسَ مَا شَكَرُوا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٠٢]. فبين سبحانه أن هؤلاء يعلمون أن الساحر ماله في الآخرة من نصيب.

وإنما يطلبون بذلك بعض أغراضهم في الدنيا: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ لَّو كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة]، آمنوا واتقوا بفعل ما أمر الله به، وترك ما نهى الله عنه، لكان ما يأتيهم به على ذلك في الدنيا والآخرة خير لهم مما يحصل لهم بالسحر) ا. هـ (٤).

﴿قَالَ ءَأَمَنْتُمْ لَمْ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُمْ لَكَايِبُ لَكُمْ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَقْدَامَكُمْ مِّنْ خَلْفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُدُوعِ النَّخْلِ وَلَيَعْلَمَنَّ آيَاتُنَا شَدِيدًا وَعَاقِبَةُ ﴿٥١﴾﴾. قال: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُدُوعِ النَّخْلِ﴾ بمعنى على جذوع النخل (٥) ا. هـ.

(١) الصلفية (١/١٣٧ - ١٣٨).

(٢) مرّ تخريجه.

(٣) مجموع الفتاوى (٣٥/١٧١).

(٤) مجموع الفتاوى (٢٤/٢٧٩).

(٥) مجموع الفتاوى (٥/١٩٢) (١٦/١٠١)، بيان تلبيس الجهمية (١/٥٦٠).

قال ابن القيم:

﴿قَالَ هُمْ أَوْلَاءَ عَلَنَ أَنرَى وَعَجَلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى﴾ (٨٧).

(قوله تعالى: ﴿وَعَجَلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى﴾ وظاهر الآية أن الحامل لموسى على العجلة هو طلب رضا ربه، وأن رضاه في المبادرة إلى أوامره والعجلة إليها؛ ولهذا احتج السلف بهذه الآية على أن الصلاة في أول الوقت أفضل، سمعت شيخ الإسلام ابن تيمية يذكر ذلك، قال: إن رضى الرب في العجلة إلى أوامره) ١. هـ (١).

﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ (٨٨).

(وإذا كان كذلك، فمن المعلوم أن الكلام صفة كمال، كما أن العلم والقدرة والسمع والبصر صفة كمال، وأن المتكلم أكمل ممن لا يتكلم، كما أن الحي أكمل من الجماد، ولهذا عاب الله الجمادات المعبودة بأنها لا تتكلم، كما في قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا﴾، وكذلك قول الخليل: ﴿مَا لَكُمْ لَا نَطْقُونَ﴾ (٩٦) [الصفات]، سواء كان المراد بيان أن العابد أكمل من معبوده وهذا ممتنع، أو بيان أن المعبود يجب أن يكون متصفاً بصفات الكمال) ١. هـ (٢).

وقال رحمه الله: (في قوله: ﴿وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ (٨٨)، فهو لا يقدر أن يضر أحداً سواء عبده أو لم يعبده، ولا ينفع أحداً سواء عبده أو لم يعبده؛ وقول من قال: لا ينفع إن عبد ولا يضر إن لم يعبد بيان لانتفاء الرغبة والرغبة من جهته؛ بخلاف الرب الذي يكرم عابديه، ويرحمهم، ويهين من لم يعبده ويعاقبه) ١. هـ (٣).

﴿قَالَ يَهْرُونَ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا ۖ أَذَلَّتْ بَصَرِي أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي﴾ (٩٦).

قال رحمه الله في بيان أن النهي إذا كان في طلب لما يقصده الناهي - يكون أمراً: (ومنه قول موسى لأخيه: ﴿مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا ۖ أَذَلَّتْ بَصَرِي أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي﴾ (٩٦) وموسى قال له: ﴿أَخْلَفْتَنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلَحَ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٢] نهى. وهو لأمه على أنه لم يتبعه، وقال: أف عصيت أمري؟ وعُباد العجل كانوا مفسدين. وقد جعل هذا كله أمراً) ١. هـ (٤).

﴿أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي﴾ (٩٦).

- (١) المدارج (٥٩/١).
 (٢) الصفدية (٦٦/٢).
 (٣) مجموع الفتاوى (٢٧٢/١٥).
 (٤) مجموع الفتاوى (٦٧٤/١١).

(فالأمر يراد به نفس مسمى المصدر، كقوله: ﴿أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي﴾، ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ﴾ [النور: ٦٣]، ﴿ذَلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنزَلَهُ إِلَيْنَا﴾ [الطلاق: ٥] ا. هـ^(١).
 ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُمْ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾ (١٧٨).
 (ومن ذلك: خشوع الأصوات. كقوله تعالى: ﴿وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ﴾ وهو انخفاؤها وسكونها) ا. هـ^(٢).

وقال رحمه الله: (قال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُمْ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾ (١٧٨) يَوْمَئِذٍ لَا نَنْفَعُ الشَّفَعَةَ إِلَّا مَنْ أَدْنَى لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا) (١٧٩) وفيه قولان:

قيل: إلا شفاعته من أذن له الرحمن.

وقيل: لا تنفع الشفاعته إلا لمن أذن له الرحمن، فهو الذي تنفعه الشفاعته.

وهذا هو الذي يذكره طائفة من المفسرين، لا يذكرون غيره لأنه لم يقل «لا تنفع إلا من أذن له» ولا قال: «لا تنفع الشفاعته إلا فيمن أذن له» بل قال: ﴿لَا نَنْفَعُ الشَّفَعَةَ إِلَّا مَنْ أَدْنَى لَهُ﴾، فهي لا تنفع ولا ينتفع بها، ولا تكون نافعة إلا للمأذون لهم. كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿لَا نَنْفَعُ الشَّفَعَةَ إِلَّا مَنْ أَدْنَى لَهُ﴾ ﴿وَلَا نَنْفَعُ الشَّفَعَةَ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَدْنَى لَهُ﴾ [سبا: ٢٣].

ولا يقال: لا تنفع إلا لشفيح مأذون له. بل لو أريد هذا، ل قيل: لا تنفع الشفاعته عنده إلا من أذن له. وإنما قال: ﴿لِمَنْ أَدْنَى لَهُ﴾ وهو المشفوع له. الذي تنفعه الشفاعته.

وقوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُزِعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾ [سبا: ٢٣] لم يعد إلى «الشفعاء» بل عاد إلى المذكورين في قوله: ﴿وَمَا لَهُمْ فِيهَا مِن شَرِكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِّن ظَهِيرٍ﴾ ثم قال: ﴿وَلَا نَنْفَعُ الشَّفَعَةَ عِنْدَهُ﴾ ثم بين أن هذا منتف **حَتَّىٰ إِذَا فُزِعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقُّ** فلا يعلمون ماذا قال، حتى يفرغ عن قلوبهم فكيف يشفعون بلا إذنه؟.

وهو سبحانه إذا أذن للمشفوع له فقد أذن للشافع.

فهذا الإذن هو الإذن المطلق، بخلاف ما إذا أذن للشافع فقط. فإنه لا يلزم أن يكون قد أذن للمشفوع له. إذ قد يأذن له إذناً خاصاً) ا. هـ^(٣).

(١) درء تعارض العقل (٧/ ٢٦١).

(٢) مجموع الفتاوى (٥٥٧/٢٢)، القواعد النورانية (٦٧).

(٣) مجموع الفتاوى (١٤/ ٣٨٨ - ٣٨٩).

﴿يَوْمَئِذٍ لَا نَنْفَعُ الشَّفَعَةُ إِلَّا مَنْ أِذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا﴾ (١١٤).

(قال قتادة^(١)) في قوله: إلا من أذن له الرحمن ورضي له قولاً، قال: كان أهل العلم يقولون: إن المقام المحمود الذي قال الله تعالى: ﴿عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا﴾ [الإسراء: ٧٩] هو شفاعته يوم القيامة، وقوله: ﴿إِلَّا مَنْ أِذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا﴾ إن الله يُشْفَعُ المؤمنين بعضهم في بعض.

قال البغوي: ﴿إِلَّا مَنْ أِذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ﴾ أذن الله له أن يُشْفَعَ له ﴿وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا﴾ أي ورضي قوله. قال ابن عباس: يعني قال: «لا إله إلا الله» قال البغوي: فهذا يدل على أنه لا يشفع لغير المؤمن^(٢) ا. هـ^(٣).

﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ﴾ (١١٥).

(كذلك قوله: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ﴾ سواء كان الضمير عائداً على الله، أو على ما بين أيديهم، فإن ذلك يدل على عدم إحاطة العلم بالله من طريق الأولى، وكذلك قول النبي ﷺ: «لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك»^(٤) وغير ذلك، وكذلك من قال من سلف الأمة: إن حدّه لا يعلمه أحد غيره) ا. هـ^(٥).

وقال رحمه الله: (وقال: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ﴾ (١١٥) والراجع من القولين أن الضمير عائداً إلى ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ وإذا لم يحيطوا بهذا علماً وهو بعض مخلوقات الرب، فإن لا يحيطوا علماً بالخالق أولى (وأحرى) ا. هـ^(٦).

﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾ (١١٦).

(وقد قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمَمٍ رَسُولًا يَنْتَلُوا عَلَيْهِمْ عَائِبَاتًا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ﴾ [قصص: ٥٩] وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ [هود: ١١٧] وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾ [١١٦] قال المفسرون: الظلم أن يحمل

(١) لم أجده. (٢) البغوي (٣/١٩٥).

(٣) مجموع الفتاوى (١٤/٣٩٠).

(٤) أبو داود (٨٧٩) والترمذي (٣٤٩٣) والنسائي (١٠٢/١) وأحمد (٥٨/٦) والحاكم (٢٨٨/١)

وابن خزيمة (٦٥٤) والبيهقي في السنن (١١٦/٢) والبغوي (١٦٦/٥) والحديث صحيح.

(٥) بيان تلبيس الجهمية (٢/١٩٧). (٦) مجموع الفتاوى (١٦/٨٨).

عليه سيئات غيره، والهضم أن ينقص من حسناته، فجعل سبحانه عقوبته بذنب غيره ظلماً ونزه نفسه عنه) ا.هـ^(١).

وقال رحمه الله: (فقوله: ﴿فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾ قال أهل التفسير: لا يخاف أن يظلم فيحمله عليه سيئات غيره، ولا يهضم فينقصه من حسناته^(٢).

ولا يجوز أن يكون هذا الظلم هو شيئاً ممتنعاً غير مقدور عليه، فيكون التقدير: فلا يخاف ما هو ممتنع لذاته، خارج عن الممكنات والمقدورات، فإن مثل هذا إذا لم يكن وجوده ممكناً، حتى يقولوا: إنه غير مقدور، ولو أراده - كخلق المثل - فكيف يعقل وجوده، فضلاً عن أن يتصور خوفه حتى ينفي خوفه؟ ثم أي فائدة في نفي خوف هذا؟ وقد علم من سياق الكلام: أن المقصود بيان أن هذا العامل لا يجزئ على إحسانه بالظلم والهضم.

فعلم أن الظلم والهضم المنفي يتعلق بالجزاء، كما ذكره أهل التفسير، وأن الله لا يجزيه إلا بعمله، ولهذا كان الصواب: أن الله لا يعذب إلا من أذنب) ا.هـ^(٣).

وقال رحمه الله: (وقد نزه نفسه في غير موضع من القرآن أن يظلم أحداً من خلقه فلا يؤتبه أجره أو يحمل عليه ذنب غيره فقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنْ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾) ا.هـ^(٤).

﴿فَنَعَلَى اللَّهِ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ ا.هـ^(٥).

(قال في الآية الأخرى: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ﴾ أي لا تعجل بتلاوة ما يقرؤه جبريل عليك، من قبل أن يقضي جبريل تلاوته، بل استمع له حتى يقضي تلاوته، ثم بعد هذا اقرأ ما أنزله إليك، وعلينا أن نجمع ذلك في قلبك، وأن تقرأ بلسانك، ثم أن تبيته للناس بعد ذهاب جبريل عنك) ا.هـ^(٥).

وقال رحمه الله: (وأمره بسؤال الزيادة من العلم بقوله: ﴿رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ وهذا

(١) مجموع الفتاوى (٨/٩١، ٥٠٧) (١٠/٨٧) منهاج السنة (١/١٣٥) (٥/١٠٣)، جامع المسائل (١٥٥/١).

(٢) ذكره ابن الجوزي عن ابن عباس برواية علي بن أبي طلحة في «زاد المسير» (٥/٣٢٤).

(٣) مختصر الفتاوى المصرية (١١٩). (٤) مجموع الفتاوى (١٧/١٧٥).

(٥) منهاج السنة (٥/٣٨١ - ٣٨٢).

يقتضي أنه كان عالماً، وأنه أمر بطلب المزيد من العلم، ولذلك أمر هو والمؤمنون بطلب الهداية في قوله: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة] وقد قال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَهْدَىٰ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢] فمن يهدي الخلق كيف يكون حائراً والله قد ذم الحيرة في القرآن في قوله: ﴿قُلْ أَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْنَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانٌ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَىٰ الْهُدَىٰ أَتَيْنَا قُلْ إِنَّ هُدَىٰ اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ﴾ [الأنعام: ٧١] ا. هـ^(١).

﴿وَإِنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَى﴾.

(واضح: بكسر الهمزة من ضحي بالفتح والكسر يضحى ضحاً إذا برز للشمس كما قال: ﴿وَإِنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَى﴾) ا. هـ^(٢).

﴿فَأَكَلَا مِنهَا فَبَدَّتْ لهُمَا سَوْءَ تُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَّرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ﴾.

(ولما حاج موسى آدم، وقال: «لماذا أخرجتنا ونفسك من الجنة؟ فقال آدم: بكم وجدت مكتوباً عليّ قبل أن أخلق: ﴿وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ﴾؟ قال: بأربعين سنة. قال: فحج آدم موسى»^(٣)) ا. هـ^(٤).

وقال رحمه الله: (ومن قال: إن آدم ما عصى فهو مكذب للقرآن، ويستتاب فإن تاب وإلا قتل؛ فإن الله قال: ﴿وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ﴾ والمعصية: هي مخالفة الأمر الشرعي، فمن خالف أمر الله الذي أرسل به رسله، وأنزل به كتبه فقد عصى، وإن كان داخلاً فيما قدره الله وقضاه) ا. هـ^(٥).

وقال رحمه الله: (قال: ﴿وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ﴾ فهي معصية خاصة) ا. هـ^(٦).

وقال رحمه الله: (وآدم عليه السلام وإن كان أكل من الشجرة فقد تاب الله عليه واجتبه وهداه، قال تعالى: ﴿وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ﴾ ثم أجبه ربُّه فناب عليه وهدى عليه السلام، وقال تعالى: ﴿فَلَقَىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة] ا. هـ^(٧).

(١) مجموع الفتاوى (١١/٣٨٤).

(٢) البخاري (٩/١٤٨)، ومسلم (٤/٤٠٤٢ - ٢٠٤٤).

(٣) منهاج السنة (٥/١٣٥).

(٤) مجموع الفتاوى (٨/٢٦٩).

(٥) مجموع الفتاوى (٧/٦١).

(٦) الجواب الصحيح (٢/٤١٥).

وقال رحمه الله: (قال تعالى لما أهبط آدم: ﴿فَأَمَّا يَا أَيُّنَّكُمْ مَتَى هُدَى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾ (١٣٣) وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾ (١٣٤) فأخبر أن من اتبع هدايه الذي جاء من عنده فإنه لا يضل ولا يشقى (١ هـ).
﴿قَالَ أَهْطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَا أَيُّنَّكُمْ مَتَى هُدَى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾ (١٣٣).

(وقال تعالى: ﴿فَأَمَّا يَا أَيُّنَّكُمْ مَتَى هُدَى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾ (١٣٣) وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا﴾ قال ابن عباس رضي الله عنه: تكفل الله لمن قرأ القرآن وعمل بما فيه أن لا يضل في الدنيا ولا يشقى في الآخرة، وقرأ هذه الآية (٢) ١ هـ. (٣)
وقال رحمه الله: (قال تعالى: ﴿فَأَمَّا يَا أَيُّنَّكُمْ مَتَى هُدَى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾ فأهل الهدى والفلاح: هم المتبعون للأنبياء، وهم المسلمون المؤمنون في كل زمان ومكان، وأهل العذاب والضلال: هم المكذبون للأنبياء، يبقى أهل الجاهلية الذين لم يصل إليهم ما جاءت به الأنبياء) ١ هـ. (٤)

وقال رحمه الله: (ولفظ «الضلال» إذا أطلق تناول من ضل عن الهدى، سواء كان عمداً أو جهلاً، ولزم أن يكون معذباً كقوله: ﴿إِنَّهُمْ أَلْفَاؤًا آتَاءَهُمْ صَّالِينَ﴾ (٦٦) فَهُمْ عَلَىٰ آثَرِهِمْ يُهْرَقُونَ﴾ (٧٠) [الصفات]، وقوله: ﴿رَبَّنَا إِنَّا أَعْطَيْنَا سَادَتَنَا وَكِبْرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلًا﴾ (٧٧) رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنَهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا﴾ (٧٨) [الأحزاب]، وقوله: ﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾ ثم قد يقرن بالغي والغضب كما في قوله: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ﴾ (٢) [النجم]، وفي قوله: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ [الفاتحة: ٧]، وقوله: ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ﴾ (٤٧) [القمر] ١ هـ. (٥)

﴿قَالَ أَهْطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَا أَيُّنَّكُمْ مَتَى هُدَى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾ (١٣٣) وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾ (١٣٤).

(١) بيان تلبس الجهمية (١٤٩/١). (٢) ابن جرير (٢٢٤/١٦) يبيح الخلاف.

(٣) مجموع الفتاوى (٨٤/١) (١٢١/١ - ١٢٢) (١٢٧/٣) (٣١٤/٣) (٢٤٤/١٥) (٧٦/١٩) - (٧٧)، دره تعارض العقل (٥٤/١) (٤٠٦/٨) منهاج السنة (٥٥٤/٢)، جامع المسائل (٨٦/٣) (٤٩/٤).

(٤) مجموع الفتاوى (٣٠٨/١٧). (٥) مجموع الفتاوى (١٦٦/٧ - ١٦٧).

قال تعالى: ﴿فَأَمَّا يَا أَيُّنَاكُمْ مَنِ اهْدَىٰ فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٦٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَضَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا ﴿١٦٥﴾ قَالَ كَذَلِكَ أَنتَكَ ءَايَاتُنَا فَنَسِينَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ نُنْسِيكَ ﴿١٦٦﴾﴾ فمن أعرض عن هدى الله الذي أرسل به رسله وأنزل به كتبه فلم يفرق بين ما أمر الله به وما نهى عنه كان معرضاً عن ذكره المنزل) ١. هـ^(١).

وقال رحمه الله: [قال الله] تعالى لما أهبط آدم: ﴿قَالَ أَهْبِطَا مَعَهُمَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَأَمَّا يَا أَيُّنَاكُمْ مَنِ اهْدَىٰ فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٦٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٦٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَضَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا ﴿١٦٥﴾ قَالَ كَذَلِكَ أَنتَكَ ءَايَاتُنَا فَنَسِينَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ نُنْسِيكَ ﴿١٦٦﴾﴾، قال ابن عباس رضي الله عنهما: تكفل الله لمن قرأ القرآن وعمل بما فيه أن لا يضل في الدنيا، ولا يشقى في الآخرة ثم قرأ هذه الآية^(٢).

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي﴾ يتناول الذكر الذي أنزله، وهو الهدى الذي جاءت به الرسل، كما قال تعالى في آخر الكلام: ﴿كَذَلِكَ أَنتَكَ ءَايَاتُنَا فَنَسِينَهَا﴾ أي تركت إتباعها والعمل بما فيها، فمن طلب الهدى بغير القرآن ضل، ومن اعتر بغير الله ذل) ١. هـ^(٣).

وقال رحمه الله: (وقال تعالى: ﴿فَأَمَّا يَا أَيُّنَاكُمْ مَنِ اهْدَىٰ فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٦٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٦٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَضَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا ﴿١٦٥﴾ قَالَ كَذَلِكَ أَنتَكَ ءَايَاتُنَا فَنَسِينَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ نُنْسِيكَ ﴿١٦٦﴾﴾، فبين أن من اتبع الهدى الذي جاء من عنده، وهو ما جاءت به الرسل، فإنه لا يضل ولا يشقى بل يكون من المهتدين المفلحين، كما قال تعالى في نعمتهم: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُقِفُونَ ﴿٣﴾ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾﴾

(١) الاستغاثة (١٨٢ - ١٨٣).

(٢) أخرجه الطبري (٢٢٥/١٦) بلفظ (ضمن، تضمن)، ورواه ابن أبي شيبة (٣٤٧٨١)، ونسبه السيوطي في «الدر المنثور» (٣١١/٤) إلى الفريابي وسعيد بن منصور وعبد بن حميد ومحمد ابن نصر المرزوي وابن أبي حاتم وابن المنذر والبيهقي في «الشعب».

(٣) درء تعارض العقل (١٦٦/١ - ١٦٧).

أُولَئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾ [البقرة] ا. هـ (١).

وقال رحمه الله: (وقد قال تعالى لما أهبط أباهم آدم: ﴿قَالَ أَهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٣٦﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَيَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٣٧﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا ﴿١٣٨﴾ قَالَ كَذَلِكَ أَنْتَ أَيْتَنَا فَتَبْنَاكَ وَأَيُّهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ تَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّي وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣٩﴾﴾، فأخبر أنه إذا أتاهم هدى منه، وهو ما أنزله على رسله من الذكر فمن اتبعه اهتدى وسعد في الدنيا والآخرة، ومن أعرض عنه شقي وعمي، ولهذا قال في أوائل البقرة في نعت المؤمنين: ﴿أُولَئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾﴾ كما قال هنا: ﴿فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾ فإن الهدى ضد الضلال، والفلاح ضد الشقاء) ا. هـ (٢).

وقال رحمه الله: (وقال تعالى لما أهبط آدم من الجنة: ﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٣٦﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَيَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٣٧﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا ﴿١٣٨﴾ قَالَ كَذَلِكَ أَنْتَ أَيْتَنَا فَتَبْنَاكَ وَأَيُّهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ تَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ ﴿١٣٩﴾﴾. فقد أخبر أن من اتبع الهدى الذي أتانا منه، وهو ما جاءت به الرسل، فلا يضل ولا يشقى، ومن أعرض عن ذكره، وهو الذكر الذي أنزله، وهو كتبه التي بعث بها رسله، بدليل أنه قال بعد ذلك: ﴿كَذَلِكَ أَنْتَ أَيْتَنَا فَتَبْنَاكَ وَأَيُّهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ تَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ ﴿١٣٩﴾﴾.

والذكر مصدر يضاف تارة إلى الفاعل وتارة إلى المفعول، كما يقال: دق الثوب، ودق القصار، ويقال: أكل زيد، وأكل الطعام، ويقال: ذكر الله، أي ذكر العبد لله، ويقال: ذكر الله، أي ذكر الله الذي ذكره هو مثل ذكره عبده، ومثل القرآن الذي هو ذكره.

وقد يضاف الذكر إضافة الأسماء المحضة، فقوله: ﴿ذِكْرِي﴾ إن أضيف إضافة المصادر، كان المعنى: الذكر الذي ذكرته، وهو كلامه الذي أنزله، وإن أضيف إضافة الأسماء المحضة، فذكره هو ما اختص به من الذكر، والقرآن مما اختص به من الذكر) ا. هـ (٣).

(٢) مجموع الفتاوى (١٢/٣٣٥ - ٣٣٦).

(١) الصلفية (٢/٢٤٦).

(٣) منهاج السنة (٢/١٥٥ - ١٥٦).

وقال رحمه الله: (وقال في الآية الأخرى: ﴿فَمَنْ أَتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾ (١٧٢) وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٧٣﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا ﴿١٧٤﴾؟ قال: ﴿قَالَ كَذَلِكَ أَنْتَ أَيْدِنَا فَسِينَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَىٰ﴾ (١٧٤)، فهذا الكلام الذي خاطب الله به آدم وغيره لما أهبطهم قد تضمن أنه أوجب عليهم اتباع هداية المنزل، وهو الوحي الوارد على أنبيائه، وتضمن أن من أعرض عنه وإن لم يكذب به فإنه يكون يوم القيامة في العذاب المهين، وأن معيشته تكون ضنكاً في هذه الحياة، وفي البرزخ والآخرة، وهي المضنوكه النكدية المحشوة بأنواع الهموم والغموم والأحزان كما أن الحياة الطيبة هي لمن آمن وعمل صالحاً) ١. هـ (١).

﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَىٰ﴾ (١٧٣). (وذكر في الكافر ضد ذلك أنه قال: يضيق عليه قبره إلى أن تختلف فيه أضلاعه، فتلك المعيشة الضنك، التي قال الله تعالى: ﴿فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَىٰ﴾ (١٧٣). ١. هـ (٢).

وفي معنى «الإعراض» قال:

(وإن تصور ما جاء به الرسول وانصرف فهو معرض عنه، كما قال تعالى: ﴿رَأَيْتَ الْمُتَفَقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا﴾ [النساء: ٦١] وكما قال: ﴿قَالَ أَهَيْطًا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾ (١٧٣) وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا﴾ (١٧٣) وكما قال: ﴿رَأَيْتَ الْمُتَفَقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا﴾ [النساء: ٦١]، ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ [لقمان: ٢١] ١. هـ (٣).

وقال رحمه الله: (وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا﴾ تشمل الكافر، فله منها حق الوعيد، وتشمل المؤمن المرتكب الكبيرة، فله نصيب من ضنك العيش بقدر إعراضه عن الذكر) ١. هـ (٤).

وقال رحمه الله: (وقد يكون صفة كمن يسأل عن قوله: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي﴾ ما ذكره؟ فيقال له: هو القرآن مثلاً، أو هو ما أنزله من الكتب. فإن الذكر مصدر، والمصدر تارة يضاف إلى الفاعل وتارة إلى المفعول، فإذا قيل: (ذكر الله) بالمعنى

(١) مجموع الفتاوى (٢٠/١٠٦ - ١٠٧).

(٢) مجموع الفتاوى (٤/٢٩٠).

(٣) مجموع الفتاوى (٢/٧٨).

(٤) مختصر الفتاوى المصرية (١٨٨ - ١٨٩).

الثاني كان ما يُذكَرُ به مثل قول العبد سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر. وإذا قيل بالمعنى الأول، كان ما يذُكَّرُ هو، وهو كلامه، وهذا هو المراد في قوله: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي﴾ لأنه قال قبل ذلك: ﴿فَأَمَّا يَا لَيْتَكُمْ مَنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾ وهداه هو ما أنزله من الذكر، وقال بعد ذلك، ﴿قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا﴾ (١٢٥) قَالَ كَذَلِكَ أَنْتَكَ أَيْنُنَا فَنَسِينَهَا، والمقصود أن يعرف أن الذكر هو كلامه المنزل، أو هو ذكر العبد له، فسواء قيل ذكرني كتابي أو كلامي أو هداي أو نحو ذلك كان المسمى واحداً) ١. هـ^(١).

وقال رحمه الله: (فالقُرآن هو ذكر الرحمن، قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾ (١٢٤) قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا﴾ (١٢٥) قَالَ كَذَلِكَ أَنْتَكَ أَيْنُنَا فَنَسِينَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى﴾ (١٢٦). يعني تركت العمل بها، قال ابن عباس رضي الله عنه: تكفل الله لمن قرأ كتابه وعمل بما فيه أن لا يضل في الدنيا، ولا يشقى في الآخرة؛ ثم قرأ هذه الآية) ١. هـ^(٢).

﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ (١٢٦).

(وقوله: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ (١٢٦) أي إن عذابهم له أجل مسمى، إما يوم القيامة، وإما في الدنيا كيوم بدر، وإما عقب الموت، وقد ذكر في الآية الأقوال الثلاثة، فلولا كلمة سبقت من ربك إلى أجل مسمى لكان العذاب لزاماً، أي لازماً لهم. فإن المقتضي له قائم تام، وهو كفرهم) ١. هـ^(٣).

﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى﴾ (١٢٧).

(قوله: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ قد فسرها كثير من المفسرين أي فصلُّ بحمد ربك والثناء عليه، لم يذكر ابن الجوزي غير هذا القول، قال^(٤): وسبِّح بحمد ربك أي صلُّ له بالحمد والثناء عليه. وتفسير التسييح بالصلاة فيها أحاديث صحيحة وآثار كثيرة، مثل حديث جرير المتقدم.

وأما قوله: ﴿بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ فقد فسروه كما تقدم، أي بحمد ربك وشكر ربك وطاعة

(١) مجموع الفتاوى (١٣/٣٣٤ - ٣٣٥).

(٢) مجموع الفتاوى (١١/٣٠٢).

(٣) مجموع الفتاوى (١٦/٥٩٣).

(٤) زاد المسير (٥/٣٣٣).

ربك وعبادة ربك، أي بذكرِكَ رَبِّكَ وشكرِكَ رَبِّكَ وعبادتك ربك، ولا ريب أن حمد الرب والثناء عليه ركنٌ في الصلاة، فإنها لا تتم إلا بالفاتحة التي نصفها الأول حمدٌ لله وثناء عليه وتحميد له، وقد شرع قبل ذلك الاستفتاح، وشرع الحمد عند الرفع من الركوع، وهو متضمن لحمد الله تعالى.

وذكر طائفة من المفسرين كالثعلبي وغيره قولين، قالوا - واللفظ للبخاري^(١) -: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ أي صَلِّ بِأَمْرِ رَبِّكَ، وقيل له بالحمد والثناء عليه، فهذا القول الأول الذي ذكره البخاري هو مأثور عن أبي مالك أحد التابعين الذين أخذ عنهم السدي التفسير من أصحاب ابن عباس. وروى ابن أبي حاتم^(٢) عن أسباط عن السدي عن أبي مالك: قوله: ﴿بِحَمْدِ﴾ أي بأمر. وتوجيه هذا أن قوله: «بحمده» أي بكونه محموداً، كما قد قيل في قول القائل «سبحان الله وبحمده»، قيل: سبحان الله ومع حمده أسبحة، أو أسبحة بحمدي له، وقيل: سبحان الله وبحمده سبحانه، أي هو المحمود على ذلك، كما تقول: فعلتُ هذا بحمد الله، وصلينا بحمد الله، أي بفضل وإحسانه الذي يستحق الحمد عليه، وهو يرجع إلى الأول، كأنه قال: بحمدنا لله فإنه المستحق لأن نحمده على ذلك.

وإذا كان ذلك بكونه المحمود على ذلك فهو المحمود على ذلك، حيث كان هو الذي أمر بذلك وشرعه، فإذا سَبَّحْنَا سَبَّحْنَا بِحَمْدِهِ، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ الآية [آل عمران: ١٦٤]. وقد يكون القائل الذي قال: «فسبح بحمد ربك» أي بأمره أراد الأمور به، أي سبِّحه بما أمرك أن تُسبِّحه به، فيكون المعنى: سَبَّحَ التَّسْبِيحَ الذي أمركَ رَبُّكَ به، كالصلاة التي أمركَ بها، وقولنا «صليتُ بأمر الله» و«سبَّحتُ بأمر الله» يتناول هذا وهذا، يتناول أنه أمرٌ بذلك ففعلته بأمره لم أبتدعه، وأني فعلتُ بما أمرني به لم أبتدع.

فأما هذه الآية ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾ فلم يذكر البخاري وابن الجوزي إلا أنه الصلاة كما ذكرنا، وكذلك آية «ق»، قال ابن الجوزي: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ أي صَلِّ بِأَمْرِ رَبِّكَ بالثناء على ربك والتنزيه عما يقول المبطلون. فذكر الثناء والتنزيه عما يقول المبطلون تفسيراً للحمد. فأما البخاري فإنه قال: فصلٌ حمداً لله. وهو ينقل ما

(١) معالم التنزيل (٣/٢٣٦). (٢) لا يوجد النص في تفسيره المطبوع.

يذكره الثعلبي في تفسيره في مثل هذه المواضع، والثعلبي يذكر ما قاله غيره، سواء قاله ذاكراً أو آثراً، ما يكاد هو يُنشئ من عنده عبارة، وهذه عبارة طائفة قالوا: «سبح بحمد ربك» صلّ حمداً لله، جعل نفس الصلاة حمداً، كما يقال: افعلْ هذا حمداً لله أي شكرياً. وهذا بنى على قول من قال: «بحمد ربك» أي بكونه محموداً، ثم جعل المصدر يضاف إلى المفعول) ١. هـ^(١).

(وقول الله تعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾ يتناول الغروب المعروف، فعلى العبد أن يصلي قبل هذا الغروب، وإن طلعت ثم غربت، والأحكام المتعلقة بغروب الشمس حصلت بذلك الغروب، فالصائم يفطر، ولو عادت بعد ذلك لم يبطل صومه، مع أن هذه الصورة لا تقع لأحد، ولا وقعت لأحد، فتقديرها تقدير ما لا وجود له، ولهذا لا يوجد الكلام على حكم مثل هذا في كلام العلماء المفرعين) ١. هـ^(٢).

وقال رحمه الله: (ما خرجاه في «الصحيحين» عن جرير بن عبد الله البجلي قال: كنا جلوساً عند رسول الله ﷺ إذ نظر إلى القمر ليلة البدر فقال: «إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر لا تضامون في رؤيته، فإن استطعتم أن لا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وصلاة قبل غروبها فافعلوا، ثم قرأ: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾»^(٣). وهذا الحديث من أصح الأحاديث على وجه الأرض المتلقاة بالقبول، المجمع عليها عند العلماء بالحديث وسائر أهل السنة) ١. هـ^(٤).

﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفِثَنَّهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾

(وقوله سبحانه: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفِثَنَّهُمْ فِيهِ﴾ يتناول النظر إلى الأموال واللباس والصور وغير ذلك من متاع الدنيا، أما اللباس والصور فهما الذان لا ينظر الله إليهما، كما في صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إن الله لا ينظر إلى صوركم ولا إلى أموالكم، وإنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم»^(٥) وقد قال تعالى: ﴿وَكَلَّا أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثْنًا وَرِيًّا﴾ [مريم] وذلك أن الله يمتع بالصور كما يمتع بالأموال، وكلاهما من زهرة الحياة الدنيا،

(١) جامع المسائل (٣/ ٢٨٩ - ٢٩١). (٢) منهاج السنة (٨/ ١٧٠).
 (٣) مرّ تخريجه. (٤) مجموع الفتاوى (٦/ ٤٢١).
 (٥) مسلم (٢٥٦٤).

وكلاهما يفتن أهله وأصحابه، وربما أفضى به إلى الهلاك دنیا وأخرى) ا. هـ (١).

﴿وَقَالُوا لَوْلَا يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ مِنْ رَبِّهِ أَوْلَم تَأْتِيهِمْ بَيِّنَةٌ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى﴾ (١٣٣).

(وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ مِنْ رَبِّهِ أَوْلَم تَأْتِيهِمْ بَيِّنَةٌ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى﴾ (١٣٣)، فإنه أتاهاهم بجلية ما في الصحف الأولى: كالتوراة والإنجيل مع علمهم بأنه لم يأخذ عن أهل الكتاب شيئاً. فإذا أخبرهم بالغيوب التي لا يعلمها إلا نبي أو من أخبره نبي، وهم يعلمون أنه لم يعلم ذلك بخبر أحد من الأنبياء، تبين لهم أنه نبي وتبين ذلك لسائر الأمم، فإنه إذا كان قومه المعادون وغير المعادين له مقرين بأنه لم يجتمع بأحد يعلمه ذلك صار هذا منقولاً بالتواتر، وكان مما أقر به مخالفوه مع حرصهم على الطعن لو أمكن.

فهذه الأخبار بالغيوب المتقدمة قامت بها الحجة على قومه وعلى جميع من بلغه خبر ذلك، وقد أخبر بالغيوب المستقبلية وهذه تقوم بها الحجة على من عرف تصديق ذلك الخبر كما قال تعالى: ﴿عُلِّيتِ الرُّومُ (١) فِي آدْنَى الْأَرْضِ (٢) وَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَلَيْهِمْ سَيَعْلُونَ (٣) فِي يَضِعُ سِينَتُ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلِ وَوَيْنُ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ (٤) يَنْصُرِ اللَّهُ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ﴾ [الروم] ا. هـ (٣).

وقال رحمه الله: (قوله: ﴿أَوْلَم تَأْتِيهِمْ بَيِّنَةٌ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى﴾ أي بيان ما فيها أو ما يبين (٤) ما فيها، أو الأمر اللين فيها) ا. هـ (٥).

﴿وَلَوْ أَنَا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنَخْزَى﴾ (١٣٤).

(قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنَخْزَى﴾ (١٣٤)، فهذا يبين أنه لم يكن ليُعذب الكفار حتى يبعث إليهم رسولاً، وبين أنهم قبل الرسول كانوا قد اكتسبوا الأعمال التي توجب المقات والذم وهي سبب للعذاب، لكن شرط العذاب قيام الحجة عليهم بالرسالة) ا. هـ (٦).

- (١) مجموع الفتاوى (١٥/٣٩٧ - ٣٩٨). (٢) كذا بالأصل، وعدم التكرار أولى.
 (٣) الجواب الصحيح (١/٤٠٧ - ٤٠٨). (٤) كذا بالأصل، ولعل صوابها: تبين.
 (٥) مجموع الفتاوى (١٥/٧٢). (٦) الجواب الصحيح (٢/٣١٤).

وقال رحمه الله: (وقد ثبت في الصحيح عن عياض بن حمار، عن النبي ﷺ أنه قال: «إن الله نظر إلى أهل الأرض فمقتهم عربهم وعجمهم إلا بقايا من أهل الكتاب»^(١))، فأخبر أنه مقتهم إلا هؤلاء البقايا، والمقت هو البغض بل أشد البغض، ومع هذا فقد أخبر في القرآن أنه لم يكن ليعذبهم حتى يبعث إليهم رسولا، فقال: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥]، وقال: ﴿وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِن قَبْلِ أَنْ نُنزِلَ وَنُخْرِقَ ﴿١٦٦﴾﴾ [طه]، فدل ذلك على أن المقتضي لعذابهم قائم ولكن شرط العذاب هو بلوغ الرسالة، ولهذا قال: ﴿... لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ...﴾ [النساء: ١٦٥] ا.هـ^(٢).